# جهود وثمار

.. يواكب صدور هذا العدد من مجلة آفاق الثقافة والتراث؛ احتفال دولة الإمارات العربية المتحدة بالعيد الوطني الثاني والعشرين، هذه الدولة التي شدّت أنظار العالم إليها، بما حققته من إنجازات كبيرة على كل الصعد خولّتها أن تتبوأ بجدارة مكانة مرموقة بين الأمم، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، لولا الجهود المخلصة، والعزيمة الأكيدة، والإيمان الصادق، والقيادة الحكيمة التي تحلّى بها صاحب السمّو رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وأخوه صاحب السمّو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وإخوانهما أصحاب السمو أعضاء المجلس الأعلى للدولة حكام الإمارات، وكل من ساهم في بناء هذا البلد الطيّب من المخلصين الخيّرين أيّا كانت مواقعهم، ومهما تباينت أعمالهم، وبفضل ذلك تحققت لهذا البلد أسباب نهضته ورقيّه وتقدّمه في مختلف نواحي الحياة، وكان أن تمتّع الناس جميعهم من مواطنين ومقيمين بنعم تعزّ على الحصر أهمّها نعمة الأمن والطمأنينة ونعمة حرية الفرد الحقيقية.

إن المنجزات الحضارية كثيرة ومتنوعة لا يتّسع المقال لذكرها ونكتفي بالإشارة الى ماشهده الجانب الثقافي من تطّور، ومالقيه من دعم وتأييد وتشجيع للعلم والثقافة، وماحفل به من إقامة للمشروعات الثقافية، ورصد للجوائز التشجيعية للإنتاج الإبداعي الثقافي.



وتأتي المكرمة التي تفضل بها صاحب السمو رئيس الدولة بإنشاء مؤسسة زايد للأعمال الخيرية والإنسانية، واعتمد لها مجلساً للأمناء برئاسة صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي نائب القائد العام ووضع من أهدافها دعم الجهود الثقافية في البلاد.

وقبل فترة احتفلت ندوة الثقافة والعلوم بتكريم المتفوقين من خلال جائزةراشد للتفوق العلمي التي شكلت حافزاً قوياً لأبناء الدولة من خلال المتفوقين في الشهادة الثانوية والكليّات المتنوعة والحاصلين على درجتي الماجستير والدكتوراه من طلاب جامعة الإمارات الذين أعدوا موضوعات ودراسات تدور حول محور رئيسي يخدم واقع الحياة في مجتمع الإمارات.

إن هذه المآثر التي تشهدها الساحة الثقافية اليوم لم تكن بدعاً في تاريخ الثقافة العربية والإسلامية، فالمدارس والمارستانات والمكتبات والجامعات التي

كلمة العدد

أسسها رجال الدولة والأفراد لا يزال بعضها شاهداً الى يومنا هذا تزخر بها البلاد العربية والإسلامية وكانت منارات تشع على العالم بأسره بنور الحضارة والعلم، تخرج منها أعلام وعلماء أمثال الغزالي والفارابي وابن سينا وابن النفيس والحسن بن الهيثم وابن رشد وغيرهم الكثير.

كذلك تزدهر الثقافة عندما ينبري لها رجال بالعمل والتعب والتفاني، وهكذا يغتني كنز الثقافة عندما تضيف له الأيدي الخيّرة المعطاءة لمسة عطاء واهتمام.

لقد تحولت المكتبة الصغيرة التي أنشأها السيد جمعة الماجد وأولاها جلّ اهتمامه ونماها من خلال أسفاره الى مركز ثقافي كبير، بل الى مركز اشعاع ثقافي تراثي لا في منطقة الخليج وحدها بل في المنطقة العربية والإسلامية، لما حوته من نفائس الكتب والمخطوطات العربية والإسلامية.

ومن خلال الجهود واللقاء المستمر بين الأفراد والجماعات يسيل نهر الثقافة العظيم ويخطّ مجراه عميقا بين الرمال، لتشمخ حبة الرمل ، ولتزهو درة على مدى الأجيال.

وقطف المثقفون والمهتمون بالعلم أول ثمار هذا الجهد، عندما أقام المركز منذ عهد قريب معرضه الأول للصحف والدوريات العربية النادرة إيذانا ببدء الخدمة، وفتح الأبواب للباحثين، ولقد تفضل صاحب السمو الشيخ حمدان بن راشد آل مكتوم برعايته للافتتاح.



وتتوالى القطوف والجنى، ويصدر العدد الثاني من مجلة آفاق الثقافة والتراث، مؤكدة حضورها الثقافي من جديد. لتترجم الطموح الى واقع، تحمل رسالة أخذت على عاتقها أن تكون منبراً ثقافياً للمؤلفين والكتّاب، ومنهلاً عذباً للباحثين والمتخصصين .

في هذا العدد ثمة إيجابيات عديدة، وإنجازات كبيرة، فإذا قصرّ بعضها، فإن بعضها الآخر يبرر طموحه، وهذا شأن الكلم حين يطمح ويرقى إلى أن يقدم لقراء الثقافة والتراث ما ينتفع به ويمكث في الأرض .

ولتحقيق الغايات المنوطة بنا في هذا المجال لابد من تضافر كل الجهود الرسمية وغير الرسمية لدعم الثقافة والصروح الثقافية التي تؤكد على مقومات حضورنا في التاريخ، وتحيي تراثنا العربي والإسلامي.

**عبد الرحمن فرفور**

# الإسلام والثقافة الأذربيجانية

## خصائص التركيب الاجتماعي الثقافي في القرون الوسطى

بقلم: الأستاذ الدكتور
رفيق عليوف
مدير مركز الدراسات الإسلامية
«إرشاد» باكو بأذربيجان

.... لاأقصد بهذا البحث إلى التحليل الشامل أو الكامل لمجمل المشاكل النظرية والعلمية العديدة المرتبطة بإضاءة التاريخ الغني للثقافة الإسلامية القروسطية في أذربيجان هذا البلد ذي الحضارة الإسلامية العريقة.. ولاأقصد كذلك إلى التصدي للمراحل المعينة من تطور هذه الثقافة أو النظر إلى مؤلفات بعض ممثليها النوابغ. إنّ مثل هذا العمل يتطلب تحقيقه جهوداً لاحدود لها. وفي الحقيقة يتم تنفيذ بعضه من جانب العديد من الباحثين والمراكز الدراسية ولايزال مستمراً.

والقصد المتواضع الذي أرمي إليه في هذا البحث هو أن أقدّم صورة أوليّة دون المفهوم الواسع لمنهج يسمح بالنظر العام إلى قضية دور الإسلام بعد الفتح للمنطقة منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب في سير التطور الثقافي التاريخي، وتأثير الإسلام على طبيعة هذا التطور ومحتواه، وكذلك تحديد الاتجاهات الرئيسية للحركة الثقافية المعنوية في المنطقة.

إنّ المبدأ الفكري الذي أنطلق منه في هذا البحث هو:

أولاً: الاعتقاد خلافاً لبعض الآراء المطروحة هنا وهناك بأنّ ترابطاً ملموساً كان يشاهد في القرون الوسطى مثلما نشاهده في عهد قوة الدولة بين البلاد الإسلامية المتكونة من الأجناس المختلفة، عربية كانت أم تركية أم فارسية.

ثانياً: إنّ القيم والمبادىء الإسلامية التي كانت حية في القلوب والأذهان كانت

هي القوة الدافعة والمعززة لهذا الترابط، رغماً عن وجود الاختلافات بين هذه البلاد سياسياً وعسكرياً واقتصادياً.

هذا وفي عهد ظهور الإسلام والفتوحات كانت شعوب ماوراء القوقاز تسكن أراضي تعدّ تاريخياً من ينابيع الحضارة العالمية القديمة. وقد حازت هذه الشعوب في ذلك الوقت على مستوى عال من الحضارة؛ الأمر الذي لعب فيما بعد دوراً أساسياً في تحديد الخصائص التي تميز بها الفكر الديني والعلمي والفلسفي والأدبي عند تلك الشعوب في هذه الرقعة من العالم الإسلامي.

إن توسع الإسلام واستقراره في المنطقة أدّى إلى امتزاج الأجناس المختلفة من البشر الذين دخلوا في الإسلام وأخذوا من القيم الإسلامية أصلاً لحياتهم الثقافية مع التمسك بالقيم الموروثة. ونتيجة لذلك شهدت المنطقة ازدهاراً ثقافياً عظيماً.

وتكمن الأسباب الواقعية المشخّصة لعملية التركيب الاجتماعي الثقافي هذه في التوافق الجذري بين المسلمين من حيث الدين والثقافة والحضارة، وبين المتطلبات الحيوية ونمط التفكير عند شعوب دار الإسلام، وفي الأحداث الثقافية للواقع العربي الإسلامي من ذلك العهد تشاهد مشاهدة واضحة الميول الموحدة الجامعة التي تعيّنها التقاليد الإسلامية الأصيلة العامة والاتجاهات القيمية.

إنّ انتشار الإسلام في أذربيجان ودخول القسم الأكبر من منطقة ماوراء القوقاز في إطار الخلافة الإسلامية أدّى إلى الاستقرار السياسي البعيد المدى، الأمر الذي ساهم في ازدهار المدن باعتبارها مراكز السياسة والثقافة، وفي تطور الصناعة والزراعة، وفي توسع العلاقات التجارية والاقتصادية والملاحة.

وكان الازدهار البيّن الملموس في هذه الميادين يتطلب بالضرورة تعميق وتوسيع مجمل العلوم المكتسبة في مجالات علم الفلك والجغرافيا والرياضيات والطب وغيرها من العلوم.

وقد ترافق ازدهار تلك العلوم بازدهار مماثل في المستوى الثقافي العام. وأصبحت المساجد والمدارس التي تضمُّها مراكز تنظيم الحياة الثقافية النشطة، حيث تقام الدراسات العلمية والدينية والفلسفية. وكان للكلمة أهمية كبيرة توزن قبل أن تقال بموازين العقل.

وقد ظهر عدد عديد من المؤلفات في الآداب والأخلاق الإسلامية، وكان للعلم قيمة خاصة تزكي الإنسان وترفع شأنه. كما كانت التربية تقوم على احترام العلم والعلماء. واكتسب الرسم والعمارة أهمية كبيرة وتدل آثارها حتى

الآن على أحاسيس الإنسان وعقلــــه؛ إذ يلمس فيهما التأثيرات العربية والفارسية والتركية المنسجمة انسجاماً كاملاً.

وفي الوقت نفسه، وعند النظر إلى قضية مزايا التكامل لثقافة الشعب الأذربيجاني واتجاهاته في عهد الإسلام الأول ينبغي أن لاتفوتنا الخصائص الرئيسية لذلك. وترتبط أولى هذه الخصائص بموضوع كثرة الثقافات التي نعني بها نوعاً من الكثارية الثقافية.

تعرضت شعوب ماوراء القوقاز قبل ظهور الإسلام لتأثيرات الثقافة الهلينية، فقد عاشت هذه الشعوب خلال فترة طويلة في مدار تأثير المقدونيين واليونان، واستوعبت كثيراً من عناصر التقاليد الهلينية القديمة، إلا أنّ هذا التأثير لم يكن في اتجاه واحد، بل أثرت هذه الشعوب أيضاً على الثقافة اليونانية، ولم تخرج من هذا الموكب متبعة التقليد الغبي الأعمى لثقافة الهلينيين القدماء التي رفض الإسلام كثيراً من عناصرها فيما بعد، بل أبدت وأعادت واستخدمت إرثها الثقافي بما يعود عليها بالثمرة والنماء، آخذة الجزء العاقل المبدع الخلاّق من تقاليد الأولين.

ويجب الإشارة كذلك إلى التأثيرات الثقافية لإيران الساسانية التي انعكست عقائدها الدينية الأخلاقية القديمة ورموزها الجمالية وتصوراتها وقيمها بشكل أو بآخر على بُنية ثقافة الشعب الأذربيجاني.

وقد حافظت المسيحية واليهودية وعقائد زرادشت وماني ومزدك السّامانية وغيرها من العقائد على مواقفها في الحياة الفكرية بدرجات متفاوتة.

بمثل هذه الثقافة المتكونة عبر العصور التقى الشعب الأذربيجاني بالإسلام. وبالطبع فقد كان لهذه الخاصية المميزة المرتبطة بحادثة التوفيقية المتأثرة بكثرة الثقافات فيما قبل الإسلام تأثير خاص على مجرى التطور الثقافي في أذربيجان في العهد الإسلامي؛ إذ إنّ ظهور البدع المختلفة مثل البابكية والإسماعيلية والحروفية والتعاليم الفلسفية معتزلية كانت أم إشراقية أو غيرهما من التعاليم يمكن تفسيرها باعتبارها نتيجة من نتائج الظاهرة المشار إليها.

هذا وترتبط الخاصية الهامة الثانية من خصائص التطور الثقافي في أذربيجان في القرون الوسطى بحادثة كثرة اللغات: إنّ أذربيجان بموجب موقعها الجغرافي تعرضت للتأثيرات الهائلة لجارها الجنوبي إيران – الدولة المركزية القوية حينذاك. وقد انتشرت في المنطقة إلى جانب اللغة التركية الألبانية التي هي اللغة الأصيلة للأذربيجانيين اللغة الفارسية – لغة الساسانيين. وعرفت عصور ماقبل الإسلام

وحتى العصور الأولى الخمسة أو الستة بعد دخول الإسلام في المنطقة ظاهرة الإزدواجية في اللغة. وبعد الفتوحات العربية أصبحت اللغة العربية -لغة القرآن الكريم - هي لغة الدولة في جميع أنحاء الخلافة العربية الإسلامية.

لايصح القول بأن العربية قد فُرضت على شعوب المنطقة بالقوة أو إكراهاً أو تبعاً لسياسة لغوية نُفذت من فوق. بل انتشرت اللغة العربية في المنطقة باعتبارها لغة للوحدة الدينية والثقافية الجديدة مزيحة من طريقها لغات أخرى.

لكن الأحداث الحربية والسياسية للعصور المتأخرة (مثل الزحف السلجوقي والغزو المغولي والحروب الصليبية والخ..) أدت إلى انتشار اللغة العربية بشكل كامل أو جزئي باعتبارها لغة التخاطب الحية. بل اللغة العربية الأدبية كان لها مصير خاص. تمكنت الثقافات العريقة للشعوب الداخلة في الخلافة العربية في النصف الثاني من القرن الهجري الأول (السابع للميلاد) أن تكون منقادة أول مرة في التاريخ بلغة واحدة تقرؤها وتفهمها جميع الشعوب في العالم الإسلامي. كما يقول المستشرق الإنجليزي مونتغمري (W. Montgomery Watt)

«أصبحت جميع القيم الثقافية المتنقلة عبر هذه العصور تُقاد حينذاك باللغة العربية».

ازداد تفاعل الثقافات الشرقية واغتنت واكتسبت شكلاً واحداً منتقلة إلى الحضارة العربية الإسلامية. وتطورت الثقافة الأذربيجانية خلال القرنين التاليين باللغة العربية أساساً. أصبحت اللغة العربية في هذه الفترة تعتبر وتفهم كآلة للثقافة الأسمى، تلزم معرفتها وتحتم لكل فرد مثقف.

كان العلماء والشعراء يؤلفون باللغة العربية رغم أن لغة التخاطب في الحياة اليومية وفي المعيشة كانت هي التركية.

لكنه، ابتداء من القرن الرابع الهجري (أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر بعد الميلاد) يزداد من جديد التأثير السياسي لإيران في المنطقة بسبب تضاؤل النفوذ العباسي ومعاناة الخلافة العربية للفتن الداخلية والوضع المتأزم المنهار، ويزداد بالتالي تأثير اللغة الفارسية على ثقافة الشعوب المجاورة. كان الفلاسفة مثل بهمنيار ابن مرزبان الأذربيجاني وهو تلميذ ابن سينا، وكذلك محمود الشبستري، وغيرهما يكتبون رسائلهم باللغتين العربية والفارسية.

إنّ توطيد السلطة الأذربيجانية في عهد الأتابكيين لم يتمكن من وقف نفوذ اللغة الفارسية وقد تطور الشعر

الأذربيجاني في هذه الفترة باللغة الفارسية، وهي الفترة التي عاش فيها الشاعر نظامي كنجوي (ولد عام ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م) الذي يُعد شعره المكتوب بالفارسية نموذجاً صافياً للثقافة الأذربيجانية.

لكنّ هذا كله لم يمنع أن تكون اللغة التركية ابتداءً من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) هي لغة العلم والشعر؛ وألف بها عماد الدين النسيمي ومحمد الفضولي بعده مؤلفاتهما الأساسية. ووصلت التركية إلى هذه الدرجة من المكانة في عهد الصفويين في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي).

وعلى وجه العموم، فقد كانت الظاهرة المميزة للوضع اللغوي في هذه الفترة هي أن اللغة التركية كانت السائدة في ميداني التخاطب والعمل، وحازت اللغة الفارسية نفوذاً بالغاً في ميدان الأدب،

أما العربية فكانت تستعمل في ميدان العلوم الإسلامية من حديث وتفسير وفقه وأصول. وتحت هذه التشكيلة من اللغات تشكلت اللغة الأذربيجانية التركية وتطورت حيث دخل في تركيبها اللغوي أكثر من ٦ آلاف كلمة ذات أصول عربية وفارسية. وعلى هذا الشكل انتشرت التركية الأذربيجانية باعتبارها لغة التخاطب وسط الشعوب المجاورة للمنطقة جنباً إلى جنب مع اللغة الفارسية. واستمرت كذلك حتى القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). ويمكن مقارنة اللغة التركية من حيث الأهمية في هذه المنطقة آنذاك باللغة الفرنسية في أوروبا.

ولايفوتنا أن نشير إلى الظاهرة المميزة الأخرى وهي أنّ تسرب الثقافات المختلفة إلى بلاد الإسلام واقتراب هذه الثقافات أدى إلى ازدياد هجرة المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي من بعضها إلى بعضها الآخر. ولاتزال بعض المناطق السكنية في أذربيجان حتى الآن تحافظ على الأسماء المرتبطة بالعرب مثل «عرب كنه» (القرية العربية) و«عَرَبْلار» (العرب) وإلخ. وتخبرنا المصادر أنّ العالم اليهودي الطبيب الرياضي المهندس الأندلسي المشهور صموئيل المغربي الذي سافر كثيراً واستقر في أذربيجان أسلم فيها وتوفي عام ٥٦٩ هـ/١١٣٧ م في مراغة. وأن الشاعر العربي أبا محمد القاسم الشامي عاش في أذربيجان في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وفي المرصد المبني في مدينة مراغة في أذربيجان كان يشتغل العالم غريغوري أبو الفرج ابن العبري في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

وفي تلك الفترة هاجر كثير من العلماء والمعماريين

والشعراء الأذربيجانيين فعاشوا في دمشق وبغداد والقاهرة والإسكندرية؛ فقد هاجر الفقيه زكي ابن الحسن بن عمر أحمد البيلقاني إلى دمشق حيث قام بتدريس الفقه والحديث. واشتهر بعلمه الواسع وكان له كثير من التلاميذ في الإسكندرية واليمن. وكذلك الفقيه المشهور في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) أبو بكر محمد الشرواني عاش في المدرسة النظامية في بغداد خلال فترة طويلة. ودرس الحكيم ابن إبراهيم الدربندي الفقه على أبي حامد الغزالي وتوفى في مدينة بخارى. وقام الخطيب التبريزي الذي كان تلميذاً لأبي العلاء المعري بتدريس الآداب في المدرسة النظامية في بغداد ودرس أبو المعالي عبد الملك ابن أحمد البيلقاني الفقه في خراسان وبغداد. وقد كتب ابن قُتَيْبَة في هذا الصدد قائلاً: «لن تجد في المدينة شاعراً من الموالي لم يكن من مواليد أذربيجان».

وفي القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) هاجر من قاراباغ إلى بغداد الشعراء الأذربيجانيون شمسي وعهدي البغدادي وعلمي ورندي وزمني زاش وفَضْلي بن محمد الفضولي.

وفي عهد السلطة الصفوية هاجر كثير من المعماريين والرسامين والعلماء والشعراء الأذربيجانيين إلى تركيا، وكان من بينهم الشاعر حامدي المقرب إلى قصر السلطان محمد الفاتح.

كما هاجر إلى تركيا من الشعراء الخليلي والباصري والسروري والطفيلي والحبيبي والظامري.

وأخيراً يجب الإشارة كذلك إلى الظاهرة المميزة للثقافة في آذربيجان في العهد الإسلامي وهي طابعها الإسلامي الجامع، أي عدم انفصاليتها من حيث النزعة المذهبية.

وتعود هذه الظاهرة إلى أن كلاً من أهل السنة والشيعة كانوا متساوين بالعدد في تاريخ أذربيجان، الأمر الذي لم يسمح للثقافة فيها أن تأخذ طابعاً يميزها من حيث النزعة المذهبية.

ويمكننا أن نقول على سبيل المثل أنه بالرغم من وجود عناصر التباين التام بين التقاليد الثقافية الشيعية الإيرانية والثقافة الإسلامية في أذربيجان فإنه لايمكن اعتبار هاتين الثقافتين متشابهتين. ولايعود الفرق بينهما إلى اختلاف مكوناتهما القومية فقط، بل يعود كذلك إلى الاختلاف في اتجاهاتهما الفكرية القيمية فإذا كانت الثقافة الإسلامية في إيران مرتبطة بالمذهب الشيعي ارتباطاً وطيداً، فقد كانت الثقافة الإسلامية في أذربيجان تتمتع بالقيم والمبادىء الإسلامية العامة.

# آداب الطب في التراث العربي الإسلامي

بقلم: الأستاذ الدكتور
سليّم عمار
أستاذ شرفي للطب النفسي
الجامعة التونسية



قبل ذكر التوجيهات التي سطّرها الأطباء العرب حول آداب الطب والأخلاقيات التي ينبغي أن يتحلىّ بها الطبيب لابدّ من التذكير بوجهة النظر الإسلامية في هذا الصدد حيث إن الطب العربي الإسلامي لم يقتصر على الأخذ بتعاليم أبقراط أو بتعاليم الفرس والهنود والصينيين فحسب، بل كان متشبّعا بالقيم الأخلاقية والدينية السامية التي تغذّى بثمارها مثل كلّ النشاطات التي ميّزت الحضارة الإسلامية في عصورها الذهبية.

فكان الطبيب الذي يحمل أمانة الإسلام وأمانة المحافظة على صحة البشر في آن واحد هو أولى الناس أن تكون تربيته سليمة ويكون سلوكه مستقيماً والتزامه بالأخلاقيات جزءاً لايتجزأ من طبعه وشخصيته، وهذه القاعدة الأساسية تندرج تحتها أمّهات الفضائل منها الصبر والاحتمال، والقناعة، والاعتدال، وفعل البرّ والإحسان، والمغفرة والسلوان، ومنها الحياء والصدق، والرحمة والرفق، والكلام الطيّب والابتسام، واجتناب العيب والاحتشام،

والتسامح والتواضع، والرصانة في كلّ المواضع، وغير ذلك من الجوانب الأخلاقية التي تمسّ عمل الطبيب أكثر من غيره في علاقته مع المرضى المساكين والأغنياء سواء أكانوا كباراً أم صغاراً على اختلاف الأجناس والأعمار.

■ ■

هذا ويمكن إجمالاً تحديد أربعة أبواب في مجال آداب الطب وأخلاقيات الطبيب العربي المسلم.

### ١) الشهادة الطبية والقسم الطبي:

فإجازة ممارسة المهنة كانت من الالتزامات المطلوبة كي يكون الطبيب قادراً على مزاولة صناعته من الوجهة العلمية والعملية حيث كانت تسحب منه إن وجد منه تقصير، فكان أوّل من اشترط هذه الإجازة هو سنان بن ثابت في زمان الخليفة المقتدر سنة ٣١١ هـ/ ٩٢٣ م ببغداد. وبقيت هذه الإجازة شرطاً أساسياً لمباشرة الطّب حتّى نسج على هذا المنوال روجير الثاني، ثم فريدريك الثاني بصقلية في القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين إلى أن عمّت هذه القاعدة كلّ الربوع فيما بعد.

هذا ولقد اشتُرط أيضا على كلّ من يريد ممارسة الطّب أن يؤدي قسما طبيّا يقطع به عهداً على نفسه. وهذا القسم يشمل أغلب فقرات قسم أبقراط مع بعض التعديل والتحوير، لجعله أكثر ملاءمة للمفاهيم الإسلامية الداعية لمواقف الفضيلة والطهارة، وللأخلاق الجميلة والمهارة.

ولم يلتزم الأطباء العرب بقسم واحد بل نرى في كتبهم أنماطاً عديدة تدور جميعاً حول المفهوم الأخلاقي نفسه والذي يجعل قدسيّة المهنة الطبية فوق كلّ الاعتبارات، والمعلوم أنّ مبادىء قسم الطبيب ترجع إلى قيم أصيلة وعريقة، نجدها في المجتمعات الحضارية القديمة، من حضارة مابين النهرين إلى حضارات مصر العتيقة وفارس والهند والصين.

حيث إنّ الأبحاث تدلّ اليوم على أنّ قسم أبقراط ليس بقسم يوناني محض بل ينبثق من أصول صناعة الطب في مجتمعات الشرق الأوسط والشرق الأقصى على السواء.

كما هو معروف أنّ قسم أبقراط قد ترجمه وكيّفه من اليونانية إلى العربية العالم العراقي حبيش ابن الأعصم (الذي يعدّ من أنجب تلاميذ حنين ابن إسحاق وأقاربه).

وقد نجد لهذا القسم فصلاً وافياً عند ابن أبي أصيبعة (القرن الثالث عشر الميلادي) في كتابه عيون الأنباء لطبقات الأطباء. وقد دخل هذا القسم فيما بعد إلى اللاتينية ثم إلى اللغات العالمية الحيّة، ورجع إلينا في صيغته الإنكليزية أو الفرنسية بعد بعض التغييرات. وقد وقع والحمد لله تكييفه وتعريبه من جديد في غالب البلدان العربية.

هذا مع العلم أنّ الطب يتطوّر اليوم خاصّة مع الاكتشافات المهولة التي

أدّت بها العلوم الحياتية والكيمياء الحيوية وعلم الجينات وأن ضرورة تعديل وإقرار قسم دولي موحّد أصبحت من مشكلات الساعة في آداب الطب وخاصة في الأقطار العربية الإسلامية. هذا ومن جهة أخرى ومهما كان الحال فإنّ الطبيب لايمكنه أن يؤدي وظيفته إن لم يجتهد طيلة حياته.

## ٢) إتقان العمل ومتابعة التحصيل العلمي:

حيث كتب في ذلك أبو الحسن بن سهل الطبري الذي يقال إنّ الرازي تتلمذ له. قال: «إنّ طول التجارب زيادة في العقل» كما يقول أبو بكر الرازي في هذا المضمار «الحقيقة في الطب غاية لاتدرك والعلاج بما تنصّه الكتب دون أعمال الماهر الحكيم برأيه خطر» مضيفاً هذا القول الرصين والذي يجوز في كل زمان ومكان: «الأطباء الأميّون والمقلّدون والأحداث الذين لاتجربة لهم ومن قلّت عنايته وكثرت شهواته قتّالون». وكان الرازي يقول في الاستشارة بين الأطباء وتنسيق الآراء بينهم: «من تطبّب عند كثير من الأطباء أوشك أن يقع في خطأ كلّ واحد منهم».

ولقد اتّسم الرازي بالذكاء والفطنة والهدوء والرصانة وبحبّ الرحمة والعدل وبالإقلال من محاكمة الناس بالإضافة إلى الرفق بالفقراء والمرضى وحسن تعهّده للطلاّب.

أمّا الشيخ الرئيس ابن سينا فهو يقول في مقدّمة كتاب النجاة «إنّ أفضل الحركات الصلاة، وأمثل السّكنات الصيام، وأرفع البرّ الصدقة، وأزكى السير الاحتمال، ولن تخلص النفس عن الدّرن ماالتفتت إلى قيل وقال، ومناقشة وجدال، وانفعلت بحال من الأحوال، وخير العمل ماصدر عن خالص نيّة، وخير النيّة ماينفرج عن جناب علم، والحكمة أمّ الفضائل، ومعرفة الله أوّل الأوائل».

كما أنّ من وصايا رشيد الدين علي بن خليفة قوله: بأنّ «الأمراض لها أعمار، والعلاج يحتاج إلى مساعدة الأقدار، وأكثر صناعة الطب حدس وتخمين، وقلّما فيه اليقين، وجزاها القياس والتجربة، لا السفسطة وحبّ الغلبة، ونتيجتها حفظ الصحة إذا كانت موجودة، وردّها إذا كانت مفقودة، فيها يتبينّ سلامة النظر ودقّة الفكر، ويتميّز الفاعل عن الجاهل، والمجدّ في الطّب عن المتكاسل، والعامل بمقتضى القياس والتجربة، عن المحتال عن اغتناء المال وعلو المرتبة».

أمّا عبد اللطيف البغدادي (٥٥٧ هـ/ ١١٦١م) ذلك العلاّمة الشهير المعاصر لموسى بن ميمون القرطبي فيقول: «ومن لم يتحمّل ألم التعليم لم يذق لذّة العلم، ومن لم يكدح لم يفلح».

ولقد جدّد القلقشندي بدوره في بلاد الشام في القرن السابع الهجري أركان تعليم الطبّ وأثبتها بمزيد من الحكمة. ولقد كان يشترط في الطبيب «أن يتحلىّ بالإيمان وشرعة التقوى». وفي رئيس

الأطباء العلم والمعرفة والدراية بالإضافة إلى الأمانة والعناية.

**٣ ) حسن الهيئة والأخلاق :**

يقول في ذلك ثابت بن قرّة الحرّاني وهو العالم الفلكي البارع في الرياضيات والطب والفلسفة الذي نبغ في زمان المعتضد العباسي: «إن راحة الجسم في قلّة الطعام ، وراحة النفس في قلّة الآثام، وراحة القلب في قلّة الاهتمام، وراحة اللسان في قلّة الكلام».

كما يقول علي بن العباس في كتابه «كامل الصناعة» في نفس الصدد: «ينبغي لمن أراد أن يكون طبيبا فاضلا أن يتحلّ بالأخلاق الفاضلة وأن لايتهاون فيها، فانّه إن فعل ذلك كانت مداواته للمرضى مداواة صواب».

هذا وبعد زمان الرازي بقليل كان في تونس أحمد ابن الجزّار الذي اتّسمت شخصيته بالاستقامة والعفّة والتواضع وبالرحمة في كل المواضع. فكتب في الأطفال والفقراء وفي الشيوخ والبؤساء. وكانت سيرته الذاتية كما هو معلوم مثلاً اقتدت به أجيال الأطباء في الديار التونسية مثل الأطباء الصقليين الذين أشرفوا على صناعة الطب بتونس طيلة قرنين متواليين، فكانوا بدورهم محلّ التقدير والإكبار، من الكبار والصغار ، كما كان الشأن لأعلام حكماء المغرب والأندلس أمثال الزهراوي وبني زهر وابن طفيل وابن رشد وغيرهم.

هذا وفي المشرق العربي بينّ علي بن رضوان المصري رئيس أطباء القاهرة زمان الفاطميين كافّة الصفات المثلى الجسدية والنفسية للطبيب. فأكّد بدوره على التزام الطبيب بحسن الهيئة واللباس والاستقامة أمام جميع الناس، وكان يضع الطبيب في منزلة قد تساوي أو تفوق منزلة الأمراء والملوك إذ يقول:«إذا كان الطبيب الفاضل يعالج الفقراء احتسابا، والأغنياء اكتسابا، وكان حاذقاً في صناعته بارعاً فيما يتولاّه متواضعاً للناس فأحبّوه وعظّموه ورفعوه ومجّدوه».

وكانت نظرة ابن رضوان إلى الطّب تتميّز بالمثالية المطلقة، لذا نجده في كتابه «في شرف الطّب» يعدّ الطبيب ولياً من أولياء الله الصالحين وفي المجال نفسه يقول الحكيم أبو الخير في كتابه «امتحان الأطبّاء»: «إنه يجب أن يكون الطبيب حسن القدّ، صحيح الأعضاء، معتدل المزاج، جيّد التصوير، قويّ الحدس، صبوراً على التعب والنصب، كتوماً، متحمّلاً مايسمعه من المرضى».

كما أنّ إسماعيل الجرجاني (القرن السادس الهجري) صاحب موسوعة «ذخيرة خوارزم شاه» التي كتبها بالفارسية وقد وضعها بعضُهم في مكانة كتاب «القانون» لابن سينا. كان يقول بالعربية لصديق له: «إنّ الجسد هو أخبث مسكن للنفس، صعب المقادة عَسِر الإجابة لقوّتك العاقلة التي تؤديك جنّة المأوى، وترقيك الدرجة العليا».

ويعدّ داود الأنطاكي (القرن العاشر الهجري) من أواخر أطباء العرب العظام. وكان ينصح الطبيب بالقناعة والعفّة وترك الملذّات «لتكون نسبته إلى الناس بالسواء، خليّ القلب من الهوى، لايقبل الارتشاء، ولايفعل حيث يشاء، ليجتنب الخطأ، وتستريح إليه النفوس من العناء».

والآن وبعد عرض الواجبات والالتزامات نصل إلى الباب الرابع والأخير المتمثل في الحقوق والمراعاة وفي الحظوظ والالتباسات التي تعلّقت سابقاً وتتعلّق اليوم بالطبيب من عديد الصفات.

### ٤ ) حقوق الطبيب ونظرة المجتمع إليه:

وقد يستنتج في هذا المجال من دراسة تراجم الأطباء العرب والمسلمين أنهم تمتّعوا إجمالا بالمكانة اللائقة بهم، فنالوا الاحترام من الأمراء والأدباء والفقهاء ومن عامّة الناس، وبلغوا مراتب سامية حتّى غير المسلمين منهم. وقد قدّر القوم الأطباء حقّ قدرهم لأنهم كما يقول ابن أبي أصيبعة: «إذا التزموا لما يجب من حقوق صناعة الطّب يكونون مبجّلين في الدنيا ولهم الدرجة العليا في الآخرة».

ومع هذا فإن البعض من أعلامهم تعرّض إلى نكبات الدهر ومكائد الزمان وإلى المضايقة والطغيان، فهذا قد حُرقت كتبه وذا قد عرف المنفى والسجون، هناك من تَعَاطَى في الشوارع التنجيم قصد المعاش، وهناك من نبغ ولم يحظ بالمنية على الفراش، بل مات شنقاً أو مسموماً أو في الاحتياج، ولم يجد الرحمة والانفراج، مثل أبي بكر الرازي وعلي ابن رضوان المصري والحسن بن الهيثم بالنسبة للصنف الأوّل وإسحاق ابن عمران ولسان الدين ابن الخطيب وابن باجه ونجيب الدين السمرقندي بالنسبة للصنف الثاني.

ومع هذا فقد بقي هؤلاء الأعلام أحياء عند ربهم وعبر الأجيال يرزقون، وبالمدح والإجلال يتمتّعون، هذا وقد تناوبت الأجيال في تاريخ الأمة العربية الإسلامية تتقهقر فيها القيم الفاضلة، وتتسرّب إليها الرذائل الشرسة، من حين لآخر عبر الزمان والمكان ولم تخلُ الأمة من الشعوذة والتدجيل، ومن المغالطة والتزوير، منذ أوج الحضارة الإسلامية حتى العصور الحالكة، ذلك أنّ صناعة الطّب من أخطر الوظائف، تضبطها حدود الاجتهاد البشري ومافيه من نقصان وقصور، ومن نسيان وفتور، ومقصودها الجوهري هو إنقاذ الأرواح البشرية وكأنما يُطلب من الطبيب أن يصبح من طائفة الملائكة، بل حتّى من صفّ الآلهة أحياناً إلى حدّ أنّه كان ولايزال يتأرجح بين صفات الخير والشرّ مثل «جانوس» الذي اشْتُهر عند الروم بوجهين وجه الخبث والعدوان، ووجه العفّة والإحسان.

فإن ابتعد الطبيب عن صفات الاستبشار والكمال، واذا انزلق في هاوية الاستهتار والإغفال،

فسرعان مايتجلىّ وجهه الشرير، ويسقط في أسفل المعايير، إلى أن يُرمى به في المأزق المرير.

■ ■

وختاماً فلا يسعنا إلاّ أن نذكّر بأن الطّب لاينفع دون أخلاق ثابتة، حيث إنّ الطبيب لن يكون ماهراً وحكيماً، إن لم يكن أساساً طاهراً ورحيماً، لذا ولكي يصبح شهيراً بحكمته، عليه أن يكون غفوراً برحمته، كما أنّ النشاط العلمي ينبغي أن يتحلىّ بالصدق والعفّة وبالتفاني والرحمة، ومهما تقدّم العلم فينبغي دوما أن نميّز بين ضرورة البحث العلمي والاكتشافات من جهة وضرورة تطبيق هذه الاكتشافات لصالح المجموعة من جهة أخرى لا للْمَسّ بسلامتها وتعريضها لَلأخطار، أو لإصابتها بالتشويه والدّمار.

وعلى كلّ حال وفي نطاق آفاقه الواسعة وحدوده الراسخة فإنّ الأطباء العرب ليجدون في تعاليم تراثهم التليد أثمن الأحكام والعبر، لاجتناب الزلّة والضرر، انطلاقاً من مأثور أعلام أجدادهم الأمجاد، الذين سطّروا وأناروا لهم طريق الحكمة والرّشاد، كما فتحوا لهم أوسع المناهج والسبل، وأروع المكاسب والمثل، فعليهم اليوم أن يواجهوا تحدّيات الساعة، بكلّ دراية وشجاعة، كي يُوَفّروا لأفراد أمّتهم العزّة والمناعة. ■

**المراجع :**


١ ) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء لطبقات الأطباء- دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥ ص٤٥/٤٦

٢ ) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء لطبقات الأطباء ص٣٥١

٣ ) عبد اللطيف محمد العبد : رسالة في أخلاق الطبيب لأبي بكر الرازي/ مكتبة دار التراث- القاهرة ١٩٧٧

٤ ) نفس المصدر : لابن أبي أصيبعه عدد ١ج٣/ ص٤١٢

٥ ) عبد اللطيف البغدادي : مقالتان في الحواس/ تحقيق د بول غليونجي ومحمد عبده ص ١٦٩ مطبعة حكومة الكويت ١٩٧٣

٦ ) عمر موسى باشا : آداب الطب عند العرب في العصر الوسيط/ أبحاث المؤتمر السنوي الثالث للجمعية السورية لتاريخ العلوم/ معهد التراث العربي/ جامعة حلب ١٩٨٠ من ص١٤٠ إلى ١٤٩- انظر كذلك القلقشندي صبح الأعشى ص٣٧٨

٧ ) أحمد عيسى بك : المأثور من كلام الأطباء/ مطبعة جامعة فؤاد الأوّل ١٩٥١ ص١٢

٨ ) علي بن عباس المجوسي : كامل الصناعة ص٨

٩ ) أحمد بن ميلاد : تاريخ الطب العربي التونسي/ شركة ديميتر ٨ شارع خير الدين باشا تونس ١٩٨٠

١٠ ) سلمان قطاية : الطبيب العربي علي بن رضوان- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/ تونس ١٩٨٤ ص٦٢

١١ ) ابن جلجل : طبقات الحكماء/ تحقيق فؤاد السيّد- مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥ ص١٥٨

١٢ ) أحمد عيسى بك : نفس المصدر عدد ٥ ص٨٤

١٣ ) داود الانطاكي : التذكرة في الطب- ص٨

# مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية

## لقاء مع الدكتور عبد الفتاح الحلو

### المدير العام لمركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية - القاهرة



سعدت مجلة آفاق الثقافة والتراث في شهر إبريل الماضي (١٩٩٣) باللقاء مع الأستاذ البحاثة الدكتور عبد الفتاح الحلو المدير العام لمركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية في القاهرة.

والدكتور الحلو من مواليد المنوفية لعام ١٩٣٧ متخصص بالأدب العباسي (قدّم بحثه لدرجة الدكتوراه عن الشريف الرضي، حياته ودراسة شعره) ومهتمّ بالتراث العربي الإسلامي، أخرج وحقّق وشارك في نشر أمهات الكتب التراثية منها كتاب المغني لابن قدامة الحنبلي (١٥ مجلدة) وكتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي (٢٠ مجلدة)، والتمثيل والمحاضرة للثعالبي، وديوان ابن المقرب، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٠

مجلدات)، ودمية القصر للباخرزي (مجلدان)، وريحانة الألبّاء للخفاجي (مجلدان)، ونفحة الريحانة للمحبي (٥ مجلدات)، وذيل النفحة للمحبي أيضاً، وشعر الثعالبي وديوانه للشريف الرضي (٣ مجلدات)، والجواهر المضيّة في طبقات الحنفيّة للقرشي (٥ مجلدات)، وعقد الدرر في أخبار المنتظر للسلمي وله غير ذلك.

وقد عمل الدكتور الحلو باحثاً في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ثم معيداً في مركز الدراسات العربية بها أيضاً، ثم اشتغل بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية وشارك في وضع فهارس للمخطوطات، وسافر في بعثات أرسلها المعهد لاختيار المخطوطات وفهرستها، وذلك إلى اليمن والسعودية وإسبانيا والاتحاد السوفياتي سابقاً.

تولّى التدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض في كلية اللغة العربية وكلية العلوم الاجتماعية، وأشرف على مخطوطات هذه الجامعة، وكان عضواً في المجلس العلمي لمركز البحوث بها.

التحق بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية أستاذاً زائراً، وقد بعثه المركز إلى مكتبة الكونغرس لفحص مجموعة المخطوطات العربية فيها وفهرستها.

**■ يجب على الهيئات الثقافية منع الدخلاء من تناول التراث وإفساده.**

**■ غياب النقد شجّع غير المؤهلين للعمل في التحقيق.**

**■ ماوظيفة المؤسسات الثقافية؟**

**■ بعض تجار الكتب يسيئون إلى نصوص التراث.**

**■ من المحققين اللامعين جماعة استفادوا من أسمائهم فأخذوا يخرجون نصوصاً دون ضبط.**

ويعدّه اليوم مجمع اللغة العربية بالقاهرة خبيراً إلى جانب كونه عضواً في اتحاد الكتّاب ويقوم اليوم على إدارة مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية في القاهرة؛ وهو مؤسسة خاصة تهدف إلى تجميع العلماء والمتخصصين من أجل خدمة التراث الإسلامي وتحقيقه ونشره وإعداد الموسوعات الموسّعة والمتوسطة، وتقديم الدراسات العربية الإسلامية المتّصفة بالتحقيق العلمي والدقّة والجدّة مما ألّفه أساتذة الجامعات أو المفكرون المشار إليهم في مجال المعرفة،

وكذلك نشر البحوث والكتب ذات النفع العام مما يعالج المشكلات الآنية.

وبعد حديثه عن جهود مركز البحوث والدراسات وأعماله، توجّهنا اليه بالسؤال التالي:

■ ماملاحظاتكم وانطباعاتكم حول مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث؟

تلهّفت لزيارة المركز عند قدومي إلى الإمارات، وكنت ظننت أنني سأرى فيه مارأيته في بعض المراكز التي قامت لغرض إعلامي، فلما وقفت على حقيقة أمره وجدت صورة تحقق آمالاً في نفسي طال انتظارها، ووجدت مؤسس المركز يتابع أعماله بنفسه. ووجدت حرصاً على العمل من القائمين عليه، ولهذا فأنا أستبشر لهذه المؤسسة الثقافية خيراً، وأقول بارك الله لكم وأعيذكم من عين الكمال راجياً أن تمضي مسيرتكم دون عقبات.

■ كيف يمكن مد جسور التعاون بين مركز البحوث والدراسات ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث؟

هناك أشياء يَسرّها الله لكم في حين وهبنا الله أخرى غيرها، ولذا فنحن نتكامل معا وليس بيننا تواز أبدا بسبب اختلاف الامكانات، ونحن بما لدينا لانبخل لأي طالب علم على سطح الأرض، ولاتتصور أننا سنقصر أبدا فيما يطلب إلينا.

ولكنني ألفتُ النظر إلى شيء مهم وهو أننا حينما نصنع هذا ينظر الناس إليه مستغربين لأنهم اعتادوا على التبادل المادي الحاد، وليس معنى هذا أننا لانكسب ولانمتنع عن الكسب، بل إن فضل الله عميم، ونحن مستعدون لكل ما يطلبه المركز مما يمكن أن يفيده في تكوين المفهرسين والمصنفين والمحققين والدارسين، وبما نستطيع تقديمه من آراء وأفكار ودراسة.

ويستطيع مركز البحوث والدراسات في القاهرة أن ينوب عن مركز جمعة الماجد في كل مايريد. فالتعاون قائم والرسالة واحدة، وكل امرىء يقوم بما يقدر عليه.

■ ماالنصائح التي تقدمونها لمركز جمعة الماجد وللمحققين والناشرين المخلصين من أجل إخراج الكتاب النافع؟

أتوجه أولاً إلى مركز جمعة الماجد في أن يدقّق النصوص ويختارها ويمحّصها قبل دفعها إلى النشر؛ فكثير من تجار الكتب اليوم يتلفون النصوص نسخاً تصويرياً، وصفاً جديداً، وليتهم وقفوا عند حد التصوير لأنه يعطي صورة مماثلة لما عليه القديم، ولكنهم بحجة ألاّ يكون عندهم

ماينغّص عليهم حياتهم من دعوى حقوق النشر السابقة اخترعوا الآن قضيّة صفّ الكتب من جديد، مدّعين أنهم يحققونها وهم يتلفونها، ولذا فقد خرجت مجموعات من الكتب أفسدت تراث الأمة وأساءت إليه، وعلينا أن نتعقّب هذا تماماً، وعلى مركز جمعة الماجد وأمثاله اختيار الكتب التي يعجز عن إخراجها الناشرون والأفراد، فإن لم يُصدر مركزكم أمثال هذه الكتب فمن الذي يصدرها؟ والنقطة الأخرى؛ أرجو أن يتّجه المركز إلى الموسوعات، وهذه تمثل الأسس العلمية لحياتنا الثقافية والمراجع الأساسية الأصلية التي يعتمد عليها الباحثون.

والأمر الثالث، أنه يجب على مركز جمعة الماجد الاستمرار بتعقّب التحقيق ومراقبته ولايكتفي بأن يكون المحقق شهيراً فكثير من إخواننا الذين لمعت أسماؤهم استفادوا من أسمائهم حين امتدّ بهم العمر وكثُرت عليهم المشاغل، فأخذوا يخرجون النصوص دون ضبط ولادقّة تحقيق، لأنهم لم يفكروا في الجمهور ماداموا هم فاهمين للنص ومادام النص طيّعا بين أيديهم، فكأنهّم في أعمالهم يخاطبون أنفسهم ، فأنا أَعُدّ التحقيق مدرسة لإعادة صياغة اللسان العربي والفكر العربي، فحينما يخرج النص مضبوطاً صحيحاً مفهوماً فإنه يسدّ الخلّة التي نشأت من نقص التعليم، ويستفيد منه من قلّ علمه ليرتقي.

وقد أصبح التحقيق اليوم شغل من لاشغل له، مستباحاً لكل واغل. ومن فشل في أن يبدع فكراً جديداً في رسالة ماجستير أو دكتوراه اتجّه إلى التحقيق، لأنه تراث من غير وارث، فيخوض فيه وهو لايعلم شيئاً، ويجد أنه بحر لاساحل له، فيبحث لنفسه عن النجاة وليس للنص، فيموت النص وينجو هو. ويجب أن يفهم كثير من المحققين أن إخراج نصوص التراث أعتى وأصعب من التأليف؛ إذ لابد له من ثقافة الماضي ومعرفة ظروف المؤلف وإنتاجه وفكره؛ فهي نقلة تاريخية لايستطيعها الباحث إلاّ بعد تكوين يحتاج إلى عشرات السنين، حتى تتكون لديه خلفية يستطيع بها معالجة النص، ولهذا فيجب على المراكز المماثلة لمركز جمعة الماجد الدفاع عن التراث ومنع الدخلاء من الولوج إليه وإفساده.

**■ ماالذي يشجع برأيكم هؤلاء الدخلاء على اقتحام مائدة التراث؟**

إن غياب النقد للكتب شجع هؤلاء على الظهور، مجلاتنا حتى المتخصصة منها نادراً ماتكلف نفسها عناء النقد الجاد، وكأن

الناس أعفوا أنفسهم من هذه المهمة، ذلك لأن الباحث حين ينقد يتجشّم مشقّة، فكأنه حقق الكتاب مرة أخرى والعائد المادي بعد نقده هذا تافه، إضافة إلى أن الكتاب يبقى منسوباً إلى محققه الأول، فلننظر إلى هذا بعين الاعتبار.

■ **تسير عملية نقد النصوص وتعريف الكتب اليوم باتجاهات، فإما أن تكون للتشفي، أو المحاباة، أو لغير ذلك، بينما ينبغي أن يلتزم النقاد أسلوب النقد المنهجي. فما السبيل التي يجب أن تسير عليها عملية النقد؟**

أولاً: هذه حال الدنيا في كل عصر وليس عصرنا وحده هو الذي يتميّز بهذه الظاهرة، فالتعادليّة معروفة في العالم، والتشفّي والحقد وكذا وكذا..... من أخلاق البشر، ومانزل آدم من الجنة إلاّ لإظهار الحق من الباطل والطيّب من الخبيث وهذا قائم على مدى الأجيال. لكننا نقول إن غياب منصّات الحق، وترك الباطل يموج، هذا هو الشيء الذي يضرّ، وفي كثير من الأحيان تتكون عندنا مجموعات تنشر الباطل، وتمنع أصحاب الحق من الحديث أو العمل، وهذا الذي يجب أن نتجنبه وأن نحترسه، ونحن مطالبون بالتعادلية على الأقل، أو نصرة الحق ونسأل الله أن نمضي لهذا.

كما يجب أن تكون هناك حفظة وسدنة للتراث، يدافعون عنه وكأنهم مجندون على ثغور، أو ينتظرون هجمة العدو فيردونه. وهؤلاء المجندون تدعمهم مؤسسات، لأنهم بوصفهم من الأفراد غير قادرين على القيام بهذه الأعباء، لأن مجال الفكر يحتاج إلى مال بسبب كلفة المراجع وارتفاع أثمان البطاقات وقلة الفهارس..... فان أتيح للعلماء المساندة دافعوا عن قضيّتهم وشكّلوا فرقاء عمل جماعية وأجهزة قادرة على القيام بالمهام العويصة، وبهذا تقوم المؤسسات الفكرية في العالم.

إنّ توفير الجو للبحث لايقوم إلاّ على مؤسسات مثل مؤسستكم فالباحث العادي في بيته لايستطيع أن يجمع عنده كل هذا، لكنه حين تتوافر - لرجل عرف بالبحث - المجموعة التي تعينه على تهيئة عمل الأشياء تحت يده فإننا نحوز كسباً ضخماً للأمة، ولايهم من ينسب إليه العمل. ■

**اجرى اللقاء قسم المجلة بالمركز**

# أبو بكر الطرطوشي وجهوده في الإصلاح الاجتماعي

بقلم: الدكتور صلاح جرّار
الجامعة الأردنية

لم تحفل أمّة من الأمم بعلمائها وكبار مفكريها كما حفلت أمّة العرب والمسلمين. وحيثما وقع بصرك في خزائن التراث العربي فإنه يصادفك الكثير من كتب السير والتراجم والطبقات، وإذا ماأجلت بصرك في المكتبة الأندلسية فلسوف يطالعك من المؤلفات في أسماء الرجال وفهارس الشيوخ والطبقات ماتدهش لكثرته، فضلاً عن {hالاف الرجال والعلماء والأعلام والشيوخ المعرّف بهم في تلك المؤلفات. وماذلك إلاّ مظهر من مظاهر العناية بالعلم والانشغال به، وماذلك أيضاً إلاّ دليل ساطع على النهضة العلمية التي كانت تشمل كل شبر من أرض الأندلس، وأخذت في التفاعل والارتقاء حتى بلغ إشعاعها أقاصي الأرض فضلاً عن البلدان المجاورة.

وأمام هذا الجمّ الغفير من العلماء الذين تزخر كتب التراث الأندلسي بأسمائهم وتراجمهم، فقد بات أمراً حتمياً أن يكون حظّ بعض الأعلام أقلّ من حظ غيرهم من عناية الباحثين والدارسين على الرغم من فضل هؤلاء الأعلام وتميزهم في جهودهم العلمية في الأندلس وخارجها.

وأتيح لي أن أقرأ ماألّفه أبو بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفى بمصر بعد سنة ٥٢٠ هـ

ماكتب في الفقه والسياسة، كما أتيح لي أن أطالع جوانب من سيرته، فإذا بي أمام مصلح اجتماعي سواء في سلوكه أم في تأليفه وسواء في وطنه أم خارج وطنه.

ولد أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي المعروف بابن رُنْدَقَة (بضم الراء) في مدينة طرطوشة ( Tortosa شرقي الأندلس سنة ٤٥١ هـ، وقد ساهمت في بناء شخصيته العلمية الفذة ونزعته الإصلاحية عدة عوامل، من أبرزها: أخذه العلم عن مشاهير علماء الأندلس والعالم الإسلامي، فقد تفقّه بالقاضي أبي الوليد الباجي وصحبه بمدينة سرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف خاصة، وسمع منه وأجازه وقرأ عليه الفرائض والحساب، كما قرأ الأدب على الفقيه الظاهري أبي محمد ابن حزم بإشبيلية، ومن شيوخه أيضاً أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبي كما التقى بالقاضي الأندلسي الشهير أبي بكر محمد بن العربي بالمسجد الأقصى. كما أخذ عن كثير من الشيوخ في بلاد المشرق، فأخذ عن الأئمة مثل أبي بكر الشاشي وأبي محمد الجرجاني وابن سعيد المتولي وأبي علي التستري وأبي عبد الله الدامغاني وغيرهم.

وأما ثاني العوامل المؤثرة في نزعته الإصلاحية فكثرة ارتحاله في مدن الأندلس وأقطار العالم الإسلامي، فبعد أن تنقّل في مدن الأندلس مثل سرقسطة وإشبيلية وبلنسية وقرطبة وغيرها، رحل إلى المشرق سنة ٤٧١ هـ (أو ٤٧٦ هـ) ودخل بغداد والبصرة، ثم انتقل إلى بلاد الشام وقصد القدس الشريف، ثم استقر آخر المطاف في مصر وسكن في الإسكندرية وتزوّج بها من امرأة موسرة. ومن هذه العوامل أيضاً اتصاله بالسلاطين والملوك ممّا أتاح له الاطلاع على سياسة الدول والملوك، ففي مصر اتصل بالأفضل ابن أمير الجيوش، ولمّا قتل الأفضل ووليّ بعده المأمون ابن البطائحي أكرم المأمون أبا بكر الطرطوشي إكراماً كثيراً، ويقال بأن الطرطوشي قد ألّف كتابه «سراج الملوك» للمأمون هذا وليّ الأمر بمصر آنذاك، وكتب على «سراج الملوك» عندما أهداه للمأمون:

الناس يهدون على قدرهم
لكنني أهدي على قدري
يهدون مايفنى وأهدي الذي
يبقى على الأيّام والدّهر

**الإصلاح في سيرة الطرطوشي:**

تميّز الطرطوشي بميزات عدّة جعلت منه مصلحاً اجتماعياً أولاها: دقة الملاحظة، وثانيتها: الأسلوب الجدلي، وثالثتها: القدرة الفائقة على الاتصال الجماهيري.

إن المطالع لمؤلفات الطرطوشي يلاحظ من القراءة الأولى أن الطرطوشي كان دقيق الملاحظة لكلّ مايجري على أرض الأندلس

وغيرها من البلدان الإسلامية من ممارسات شعبية وعادات وبدع ومستحدثات، وكان يربط مايراه بالأصول الدينية ويتبين ماينسجم من هذه الممارسات مع العقائد والتعاليم الدينية مثلما يتبين مايتعارض من هذه الممارسات مع تلك التعاليم، ومن هنا كان أسلوبه في الإصلاح وردّ الأشياء إلى أصولها أسلوباً جدلياً قائماً على المناقشة والإقناع، ومن هنا أيضاً كان محبوباً من قبل طلبة العلم الذين أقبلوا عليه من كلّ جهة.

لم يكتف الطرطوشي بأن يدعو إلى الإصلاح بطريقة نظرية، بل مارس الإصلاح عملياً، وأخبار سيرته تؤكد ذلك، فقد كان الطرطوشي زاهداً عابداً متورّعاً متقلّلاً من الدنيا، قوّالاً للحق، وكان يقول: إذا عرض لك أمر الدنيا والأخرى فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى. وتورد المصادر أنّه عندما ألف كتاب «سراج الملوك» للمأمون بن البطائحي، أمر المأمون بأن يحمل للطرطوشي كلّ يوم خمسة دنانير، فامتنع الطرطوشي عن أن يقبل غير دينارين فقط.

وكان الطرطوشي يدرك أن الإصلاح لايتمّ أوّلاً إلا من خلال «التنوير» أي التعليم، ولذلك فقد اشتغل بالتدريس وهو في الإسكندرية، ولمّا تزوّج هناك بامرأة موسرة وهبت له داراً، فجعلها مدرسة وراح يدرّس بها، وأورد ابن فرحون المالكي في كتاب «الديباج المذهّب» أنّ الطرطوشي خرج في بعض النّزه، فخرج معه من تلاميذه ثلاثمائة وستّون، لكثرة الآخذين عنه المحبّين في صحبته وخدمته، وأنّ هذا من جملة مارفعه عنه القاضي ابن حديد إلى السلطان العبيدي ووشى به.

ولذلك لانستغرب أن نجد من تلامذة الطرطوشي علماء مشاهير مثل: المهدي ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية وابن ظفر الصقليّ وأبي علي الصدفي وغيرهم.

وكان الطرطوشي يحث السلاطين على إنشاء المدارس ودور العلم، مثلما كان يحث سلطان مصر في زمنه على إنشاء المكتبات مثل مكتبة دار الحكمة الجديدة بالقاهرة.

ومن المسالك الإصلاحية للطرطوشي ماأخبرنا به ابن الحاج في كتابه «المدخل» قال: «الإمام الطرطوشي ودّع رفيقه مرّة من الإسكندرية وأرسل السلام إلى والده بالمغرب وقال: هذه بلاد مصر لايحل لي أن أخرج منها لما غلب فيها من الجهل، فجعل رحمه الله يقعد على دكّان بيّاع فيعلّمه مايحتاج إليه في عقيدته وفرائض وضوئه وسننه وفضائله... فإذا فرغ منه يقول له: علّم جارك، ثم ينتقل إلى دكان آخر».

### الإصلاح في مؤلفاته :

وضع الطرطوشي عدداً من المؤلفات تنزع

في مجملها إلى الإصلاح، وقد ضاع بعضها بمرور الزمن، فمما وصلنا: كتاب «سراج الملوك»، وكتاب «الحوادث والبدع»، وكتاب «برّ الوالدين»، وغيرها.

ويتضح من أسماء مؤلفاته أنّ تآليفه لم تكن موجّهة للعامّة دون الخاصة، بل إن الإصلاح لابدّ أن يشمل الراعي والرعيّة على حدّ سواء، فنلاحظ أن كتاب «الحوادث والبدع» وكتاب «بر الوالدين» ينزعان إلى إصلاح العامّة، بينما ينزع كتابه «سراج الملوك» إلى إصلاح الخاصّة.

**كتاب الحوادث والبدع:**

هذا الكتاب واحد من أهم الكتب في موضوع الحوادث والبدع، حققه الأستاذ

كتاب الحوادث والبدع

تأليف

أبوبكر الطرطوشي

حققه على أربع نسخ وقدّم له ووضع فهارسه

عبد المجيد تركي






محمد الطالبي ونشره بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ١٩٥٩ م.

ويبدو الطرطوشي في هذا الكتاب كأنه مراقب لحركة المجتمع الإسلامي ومنبّه إلى الأخطاء التي ينزلق إليها هذا المجتمع في حركته، ولذلك فإنّ هذا الكتاب يعدّ واحداً من المصادر المهمة لدراسة أحوال المجتمع الإسلامي في الأندلس وغيرها.

والطرطوشي يرى في القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع الطريق الصحيح للممارسات الاجتماعية، فنراه ينبه على مايخالف ذلك ويخرج عنه ويسميه «بدعة». ولذلك نجده ينصّ في مقدمة هذا الكتاب قائلاً (ص ١٥): «هذا كتاب أردنا أن نذكر فيه جملاً من بدع الأمور ومحدثاتها التي ليس لها أصل في كتاب الله وسنة نبيه ولاإجماع ولاغيره، فألفيت ذلك ينقسم قسمين: قسم يعرفه الخاصّة والعامّة أنها بدعة محدثة إمّا محرّمة وإمّا مكروهة، وقسم يظنه معظمهم، إلاّ من عصم الله، عبادات وقربات وطاعات وسنناً. فأمّا القسم الأول فلم نتعرض لذكره إذ كفينا مؤونة الكلام فيه لاعتراف فاعله أنّه ليس من الدين، وأمّا الثاني فهو الذي قصدنا جمعه وإيقاف المسلمين على فساده ووبال عاقبته».

إنّ إيقاف المسلمين على هذه البدع وبيان فسادها وسوء عاقبتها هي جوهر العملية

الإصلاحية في هذا الكتاب. ومن الأمثلة التي يوردها الطرطوشي على هذه البدع قوله: (ص ١٤٠- ١٤١): «ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان، وكذلك على إقامة يناير (عيد رأس السنة الميلادية) بابتياع الفواكه كالعجم، وإقامة العنصرة، وخميس أبريل بشراء المجبنات والإسفنج، وهي من الأطعمة المبتدعة، وخروج الرجال جميعاً أو أشتاتاً، مع النساء، مختلطين للتفرج، وكذلك يفعلون في أيام العيد ويخرجون للمصلى، ويقيمون فيه الخيم للتفرج، لاللصلاة». وفي عرضه للبدع المختلفة يناقش الطرطوشي مخالفة هذه البدع للشريعة مستنداً إلى الجدال والإقناع وموردا آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوالاً للإمام مالك رضي الله عنه ـ وغيره من الأئمة.

**سراج الملوك :**

إن عنوان هذا الكتاب يدلّ على هدفه الإصلاحي، فكلمة «سراج» يقصد بها التنوير وإضاءة الطريق الصحيح أمام الملوك، وبصلاح السلاطين تصلح الرعية ويصلح المجتمع، وهذا الكتاب من تحقيق الأستاذ جعفر البيّاتي نشرته دار رياض الريّس في لندن سنة ١٩٩٠م.

وذكر الطرطوشي في مقدمته (ص ٥٢) أنّ مضمون هذا الكتاب «عصمة لمن عمل به من الملوك وأهل الرئاسة وجُنّة لمن تحصّن به من أولي الأمر والسياسة، وجمال لمن تحلّى به من أهل الأدب والمحاضرة. وعنوان لمن فاوض به من أهل المجالسة والمذاكرة».

وجعل الطرطوشي كتابه هذا في جزأين يتألفان من أربعة وستين باباً، وجعل في كلّ جزء اثنين وثلاثين باباً. نذكر منها:

الباب الأول : في مواعظ الملوك.

الباب الثاني : في مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين.

الباب الخامس : في فضل الولاة والقضاة إذا عدلوا.

الباب السادس : في أنّ السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح.

الباب الحادي عشر : في معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ولا ثبات له دونها.

الباب الرابع عشر : في الخصال المحمودة في السلطان.

الباب الحادي والعشرون : في حاجة السلطان إلى العلم.

الباب السابع والعشرون : في المشاورة والنصيحة.

الباب التاسع والثلاثون : في مثل السلطان العادل والجائر.

الباب السادس والخمسون : في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه.

الباب الستون : في الشجاعة وثمراتها.

الباب الحادي والستون : في الحروب وتدبيرها.

هذه عناوين بعض الأبواب التي تمثل حرص الطرطوشي على صلاح السلطان وصلاح الدولة وقوانينها، ونلاحظ أنه جعل باب الحروب وتدبيرها في آخر الكتاب وكأنه يرى أن قيام الدولة على أسس ثابتة محمودة يضمن لها الحفاظ على أراضيها ويحقق لها النصر على أعاديها.

وأكثر الطرطوشي من إيراد الأخبار التاريخية والحكايات والأشعار وغيرها ليدعم بها آراءه وأفكاره في الإصلاح السياسي، ففي الباب العشرين الذي عنوانه «في معرفة الخصال التي هي أركان السلطان» يسوق الطرطوشي الحكاية التالية (ص ٢٠٢):

«قال أبو جعفر المنصور : ماكان أحوجني أن يكون على بابي أربعة، لايكون على بابي أعف منهم. قيل: من هم ياأمير المؤمنين؟ قال: هم أركان الملك ولايصلح إلاّ بهم، كما أن السرير لايصلح إلاّ بأربع قوائم، فإن نقص منها قائمة واحدة عابه، أحدهم: قاض لاتأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث: صاحب خراج يستقضي ولايظلم الرعيّة فإني غني عن ظلمهم. ثم عضّ على أصبعه السبّابة ثلاث مرات يقول في كل مرّة: آه. قيل: من هو ياأمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة». إن المطالع لهذا الكتاب يلاحظ أن الطرطوشي قد حاول توظيف كثير من أخبار التاريخ عند الأمم المختلفة لتقديم نموذج الدولة القوية القائمة على العدل والإنصاف والعلم والدين، وذلك من أجل إصلاح المجتمع الإسلامي في عصره، وإنارة الطريق الصحيح له.

**برّ الوالدين :**

حقق هذا الكتاب الأستاذ محمد عبد الحكيم القاضي ونشره في بيروت سنة ١٩٨٧م.

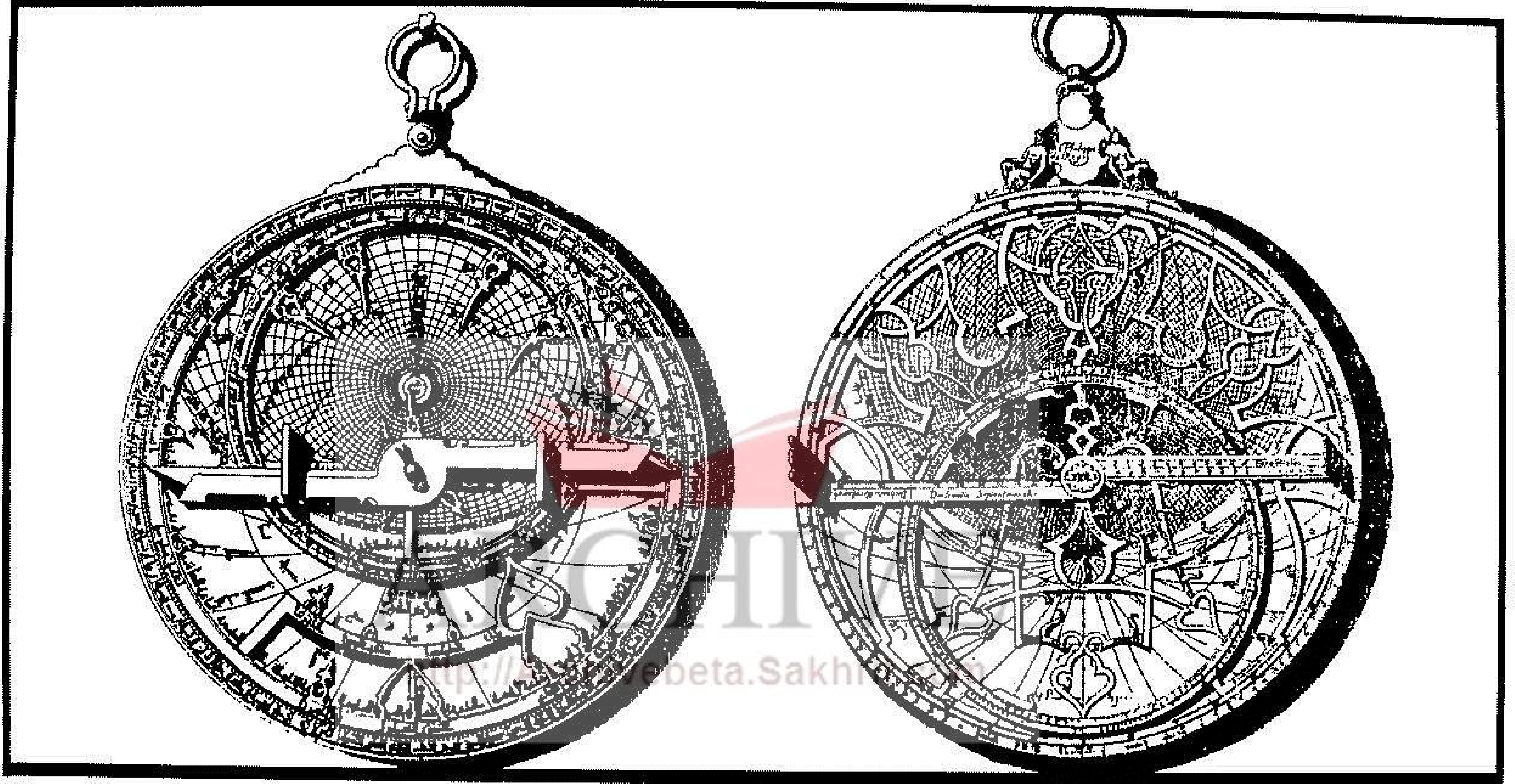
ويبينّ الطرطوشي في هذا الكتاب مايجب على الولد لوالده ومايجب على الوالد لولده. وأمّا البعد الإصلاحي فيه فينبثق من حقيقة أنّ التربية الصالحة والتماسك الأسري هما أساس صلاح المجتمع.

إنّ هذه المؤلفات الثلاثة للطرطوشي، وغيرها من مؤلفاته التي لم نتعرض لها، تنظر بمجملها إلى الإصلاح الاجتماعي من جميع جوانبه: الأسرة، المدرسة، المجتمع، السلطة، وتؤكد على أن الطرطوشي قد كرّس حياته لإصلاح المجتمع الإسلامي سواء في سلوكه أم في مؤلفاته.

رحم الله أبا بكر الطرطوشي وبارك في أمثاله. ■

# الاسطرلاب
# في المصادر العربية

المهندس لؤي بلال



وجه اصطرلاب مصون في متحف الاسكوريال في اسبانية — ظهر الاصطرلاب عينه

**تناولت المؤلفات العربية الاسطرلاب كموضوع لها - على وجه العموم - في إحدى الحالتين : بحثت الأولى في العمل بالاسطرلاب فيما بحثت الثانية في صنع الاسطرلاب. وتناولت بعضها الاسطرلاب من حيث أصل التسمية والابتكار فقط وهي استثناء.**

ومن المتفق عليه أن ذكر الاسطرلاب دون تحديد نوعه يعني أن المقصود هو الاسطرلاب المسطح والذي عرف أحياناً «بذات الصفائح».

فالاسطرلاب (بالتعريف) هو: آلة معهودة يتوصل بها إلى معرفة كثير من الأمور

النجومية على أسهل طريق، وأقرب مأخذ، مبين في كتبها، كارتفاع الشمس ومعرفة الطالع، وسمت القبلة وعرض البلاد، وغير ذلك ...[1]

وفي الحين الذي تتفق فيه أكثر المؤلفات العربية على أن (الاسطرلاب) كلمة يونانية الأصل، فإنها تختلف في معناها: «أخذ الكواكب»، «مقياس النجوم»، «ميزان الشمس». وهذه المعاني هي الأعم.

فالاسطرلاب أو (الاصطرلاب) – لتقديم السين على الطاء – كلمة مشتقة من اليونانية «استرولابوس» «αστρολαβος ١» أو «اسطرلابون» «αστρολαβον»، بمعنى (مقياس النجوم) حيث: (αστρο تعني نجم، والمقطع الثاني (λαβον) مشتقاً من الفعل (λαμβανειν) الذي يعني (أخذ) – ليصبح المعنى بالكامل: «أخذ النجوم» وكمعنى اصطلاحي (أخذ ارتفاع النجوم) أو (مقياس النجوم)[2]

في المعاجم العربية الشهيرة في العصور الوسطى (لسان العرب)، (تاج العروس)، لم أجد كلمة اسطرلاب فيهما.

في القاموس المحيط، ذكر الفيروزآبادي في معنى كلمة (لاب) أنه اسم بلد في النوبة –ربما في مصر– وذكر أيضاً أنه اسم رجل سطر أسطراً وبنى عليها حساباً فقيل: أسطرلاب، ثم مزجا، ونزعت الإضافة فقيل: الاسطرلاب.

في بعض المؤلفات العربية المبكرة في الاسطرلاب كالتي تنسب إلى العالم الفلكي (ماشاء الله)؛ (ت حوالي ٢٠٠هـ/٨١٥م)، وفي قطعة من كتابه (العمل بالاسطرلاب) مترجمة عن النص اللاتيني إذ أن النص العربي قد فقد، نجد أن:

(الاصطرلاب – اسم يوناني، معناه أخذ الكواكب)[3]

هذا المعنى كثيراً ما يتكرر ويتطابق مع الترجمة، لأصل التسمية في اليونانية – في الفارسية – العبارة (أخذ الكواكب) يمكن أن تكون مشتقة على الأرجح من (ستاره ياب) بحيث أن كلمة «ستاره» تعني نجم و«ياب» مشتقة من الفعل (يافتن) الذي يعني (الاكتشاف) أو (الحصول على)[4].

ولهذا ذهب حمزة الأصفهاني (ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م) إلى القول بأن الاسطرلاب تعريب للكلمة الفارسية (ستاره ياب) فقد جاء في كتاب (افراد المقال في أمر الظلال) لأبي الريحان البيروني (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) مانصه: (... قد ذكر حمزة الأصفهاني في كتابه الموازنة أن الاسطرلاب لفظة فارسية قد عربت فإنها ستاره ياب ،أي مدرك النجوم ...)[5]

ويعلق البيروني على ماجاء في كتاب (الموازنة) أنه يمكن أن يكون الاسم (ستاره ياب) اسم الآلة عند الفرس، ويكونوا قد اشتقوه، إما من الفعل الخاص به، أو عرّبوه عن اليونانية بمعنى أنهم أخذوا اللفظ العربي المنقول أصلاً عن اليونانية وسمّوه (ستاره ياب) أي مدرك النجوم.

وفي رسالة (سوانح القريحة في شرح الصفيحة) التي وضعها أبو محمد – عبد

الله بن فخر الدين الحسيني الموصلي في شرح رسالة (الصفيحة في الأعمال الاسطرلابية) لصاحبها بهاء الدين العاملي (ت١٠٣١هـ/١٦٢١م) يعطي الحسيني أكثر من معنى للاسطرلاب : «الاسطرلاب : قيل إنه بمعنى مرآة النجوم – معرب ستاره ياب – وقيل إنه بلغة الروم بمعنى ميزان الشمس، ويسمى بالفهلوى جام جهان نما ، وبالجملة فهو آلة اخترعها اليونانيون مشتملة على أجزاء كثيرة ، يتحرك بعضها بتحريك المحرك ...» (٦). أما في رأي الخوارزمي (ت٣٨٧هـ/٩٩٧م) فإن التسمية يونانية (اصطرلابون) والمعنى (مقياس النجوم) أو (مرآة النجوم) . فقد جاء في كتابه مفاتيح العلوم : «الاصطرلاب معناه مقياس النجوم ، وهوباليونانية اصطرلابون ، (اصطر) هو النجم و(لابون) هو المرآة ، ومن ذلك قيل لعلم النجوم اصطر نوميا ...»(٧).

ويتفق رأي الخوارزمي هذا مع رأي البيروني الذي قال في كتابه (التفهيم لصناعة التنجيم) : «اصطرلاب، هو آلة لليونانيين ، اسمها اصطرلابون، أي مرآة النجوم»(٨). لكونهما شرحا ( λαβον ) بمعنى المرآة، وربما استوحيا ذلك من شكل الاسطرلاب بكرسيه، الذي يشبه شكل المرآة اليدوية.

بعض المؤلفات العربية الإسلامية في العصور الوسطى ترجع اختراع الاسطرلاب إلى (لاب) ابن إدريس، كما جاء في رسالة (المدخل إلى علم أحكام النجوم) لأبي نصر القمي (عاش في حدود القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) : «في ذكر الاسطرلاب ... كان العلماء الأولون، أخذوا كرة على مثال الفلك تتحرك على قطبين، وركبوا عليها عنكبوتاً عليه منطقة فلك البروج وعلى الكرة الدوائر العظام، مثال دواير الارتفاع، ودواير الأفق، ودواير نصف النهار، ودايرة معدل النهار وغيرها من الدواير وكانوا يقيسون بها النهار والليل، ويصححون بها الطالع، إلى أيام إدريس النبي عليه السلام، وكان لإدريس ابن يقال له (لاب) وله علم جليل ومعرفة حسنة في هيئة الفلك ، فبسط الكرة واتخذ هذا الاسطرلاب الذي في أيدي الناس، وأنفذه إلى أبيه إدريس فأخذه إدريس وتأمله وقال : هذا من سطره فقيل : هذا اسطرلاب، فوقع عليه هذا الاسم ...»(٩)

إن قصة اختراع (لاب) للاسطرلاب التي وردت لا تروق كثيراً للخوارزمي فيرد على كلام القمي بحدة حين يقول : «... إنهم يزعمون أن لاب اسم رجل واسطر جمع سطر وهو الخط وهذا اسم يوناني اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف ...» (١٠).

وخلاصة القول مما ذكر: أن الاسطرلاب تسمية يونانية لآلة فلكية استعملت لقياس ارتفاع النجوم وتعيين أقدارها وأماكنها ولحل مسائل كثيرة غيرها.

**أنواع الاسطرلاب :**

تنحصر أنواع الاسطرلاب في ثلاثة أنواع رئيسية تبعاً لنوع التسطيح (المسقط)

المستخدم في عملها أي بحسب ماإذا كانت تمثل مسقط الكرة السماوية على سطح مستو أو مسقط هذا المسقط على خط مستقيم أو الكرة بذاتها دون أي مسقط.(١١)

وهذه الأنواع هي : الاسطرلاب الكروي والمسطح والخطي.

## ١- الاسطرلاب الكروي أو الكرّي : (Spherical Astrolabe) :

وهو يمثل الحركة اليومية للكرة بالنسبة لأفق مكان معين دون اللجوء إلى المسقط. تقاس به ارتفاعات الكواكب عن الأفق ويعين الزمن. ويتألف من :

١- كرة معدنية رسمت فيها الدائرة الكسوفية وخط الاستواء وأفق مكان معين بمقنطراته، ودوائر ارتفاعه وكذلك أوضاع النجوم الثوابت الرئيسية، وخطوط الساعات، وخطوط العرض لأماكن ما من الأرض.

٢- العنكبوت أوالشبكة وهي نصف كرة معدنية تلامس الكرة تماماً في جميع نقاطها وهي مثقبة، بحيث لا يبقى منها سوى الدائرة الكسوفية ومواضع النجوم الرئيسية، ونصف خط الاستواء.

٣- صفيحة معدنية ضيقة تنطبق تمام الانطباق على سطح الشبكة ومثقبة في القطب الاستوائي بأحد طرفيها على أن يبقى الطرف الآخر مرتكزاً دائماً على خط الإستواء.

٤- عقرب موضوع عمودياً على الصفيحة المعدنية.

٥- محور يخترق الكرة والشبكة والصفيحة المعدنية في اتجاه القطبين الاستوائيين.

## ٢- الاسطرلاب المسطح (Planispherical Astrolabe) :

ويدعى أيضاً (بذات الصفائح) (١٢) ، وهو أشهر أنواع الاسطرلاب، وقوام هذه الآلة هو الاسقاط المجّسم للكرة السماوية على السطح المستوي لدائرة المعدل (الاستواء) بحيث تكون نقطة النظر هي القطب (١٣). وللاسقاط عدة طرق استعمل في المسطح أوفاها بالغرض النوع الذي يصفه البيروني بأنه من أنواع التسطيح الكروي المخروطي والذي يقوم على أساس بسط المخروطات(١٤)

وأشهر أنواع الاسطرلاب المسطح الشمالي وهو الذي تبسط فيه قبة السماء على مستوى معدل النهار وتكون نقطة النظر عند القطب الجنوبي. ويسقط عليه من سطح القبة كل الجزء الواقع بين مدار الجدي والقطب الشمالي، ويخرج عنه الجزء الواقع بين هذا المدار والقطب الجنوبي.

### أجزاء الاسطرلاب المسطح :

جرت العادة لدى مؤلفي كتب العمل بالاسطرلاب على أن تبدأ كتبهم بتسمية أجزاء الاسطرلاب في المقدمة أو في الباب الأول لكونها تتردد كثيراً عند شرح الأعمال، فلابد من الإحاطة بها مقدماً وهي : (العلاقة، العروة ، الكرسي، العضادة،

الحجـرة أو الأم ، الشبكـة أو العنكبـوت، المريء ، القطب أو المحـور، الفــــرس، الفلس) [١٥]. وبالإضافة إلى الأجزاء المذكورة تـوجـد على الاسطـرلاب خطــوط ودوائر مرسومة على وجهـه وظهره ترتبط بأجزاء الاسطرلاب وتفيد في عمله.

### ٣- الاسطرلاب الخطي (The Liner Astrolabe) :

وقـد ابتكـره العـالم الفلكي شرف الـدين الطــوسي (ت ٦١٠هـ/١٢١٣م) وسـمـي (عصـا الطوسي) نسبـة إليـه وشكله يشبـه مسطـــرة الحســـاب بحيث أن مسقط الاسطرلاب العادي للكرة المسطحة يقع فيه على خط من خطوط سطحه المستوي.ويمكن أن يـدعى أيضـاً (بالخيطي) لأنـه يـربط في وسطه بخيط يعلق بنهـايته ثقل كالشـاقول يشير إلى مـركـز الأرض وبـه يمكن إجـراء العمليات التي تتم في الاسطرلاب المسطح.

### من هـــو أول من وضع الاسطـــرلاب المسطح ؟ :

إن أكثر ماشتهر في المخطوطات والمصادر العـربيـة أن بطليمـــوس أول من وضع الاسطـرلاب المسطـح ، وبـرغم اعتقـــادنـا بصعـوبـة إدراك الحقيقـة في ذلك إلا أن المحاولة هنا تنصب في التقـرب نحو مايمكن أن يكون حقيقة، من تعقب التطور التاريخي للاسطرلاب وجدنا أن الكلمة كانت ولا تزال تطلق للدلالة على آلات فلكية غريبة عن المبدأ النظري الذي قام عليه الاسطرلاب المسطح.

فالاسطـرلاب البحري مثـلاً لا يتشابـه مع الفلكي إلا من حيث الشكل الـدائري والاسم فقط . وقـد وجدنـا من خـلال الدراسـة أن الكـرة الفلكيـة كـانت الآلـة البـدائيـة التي استعملها أهل اليـونان أولاً لمعرفـة أمورهم الفلكية.

وعلى رأي العالم الفلكي الرياضي ثابت ابن قرة (ت٢٨٨هـ/٩٠٠م) : «أن أبرخس وهو قبل بطليموس وضـع الاسطـرلاب وسطحه على مثل مافعل لاب بعـد أن كان كـرّيا وأن الـذي دعـاه إلى ذلـك أنـه رأى الكـرة كثيراً عناؤها قليلاً نفعها فأراد أن يضع آلة قريبة يسيرة جامعـة لكثير من الأعمال يوضح بها ما غمض في الآلة المقببة الكرّية ...)[١٦].

ومـمـا ذكر نفهم أن أبـرخس (١٥٠ق.م) قد وضـع الاسطـرلاب بدلاً من الكرة الفلكية، ومعلوم أن الاسطرلاب الكروي لايحتاج إلى أكثر من وضـع شبكة أو عنكبوت على الكرة واستكمال الأجزاء الملحقـة ليصار إلى العمل به كـآلة مستقلة جـديدة عن الكـرة الفلكية. كما أن الاسطرلاب الكروي ذاته لم يعد يفي بالغرض فسطّحه أبرخس ليصبح اسطرلاباً مسطحاً يتمتع بخصـائص وصفات جـديدة ويقـــوم بأعمال لا يمكـن أن يـــؤديها الاسطـرلاب الكـروي. كما أن إشـارة أبي الحسن إلى أبــرخس ربما كـانت الإشــارة الأولى من نوعهـا ترجع إلى أبـرخس وضـع الاسطرلاب وتسطيحه.

ومما يدعم فكرتنا عن تطور الكرة الفلكية إلى اسطـرلاب كـروي وتطـور الكـروي إلى

مسطح ما جاء في كتاب ( المدخل إلى علم أحكام النجوم) لأبي نصر القمي في ذكر الاسطرلاب ، فالكرة التي كانت تتحرك على قطبين - كما وصفها - وعليها دوائر ومركب عليها عنكبوت (شبكة) وعلى العنكبوت منطقة فلك البروج هي تماماً الاسطرلاب الكروي كما يعرف اليوم.

أما بسط الكروي ووضع المسطح ، فينسبه كل من القمي وثابت إلى لاب ابن إدريس وفي اعتقادنا أنها قصة من الخيال الشعبي مثلها ماورد في (وفيات الأعيان) عن اختراع بطليموس للاسطرلاب المسطح، وملخص هذه القصة :«أن بطليموس كان راكباً دابة وبيده كرة فلكية، فسقطت منه ، فداستها الدابة ، فخسفتها ، فبقيت على هيئة الاسطرلاب ...»[١٧].

وقد فنّد ابراهيم بن سنان بن ثابت ابن قرة (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م) مزاعم ابن خلكان حين قال :« الناس ياسيدي يظنون أن الاسطرلاب ككرة مرست وتوهموا ذلك من لقب كتاب بطليموس في تسطيح الكرة وليس الأمر كذلك ولا عمل الاسطرلاب على أن تقلب الكرة عن جهتها كما قيل ولكن أصل صنعتها وعلمها أنه توهم سطحاً يماس كرة السماء على قطب معدل النهار ...» [١٨]

وفي هذا المعنى يكون ابن قرة (ابراهيم) قد ربط بين نوع التسطيح والاسطرلاب المسطح والتي بموجبها نميز بين المسطح وغيره، ونبه إلى الخطأ المرتكب في نسبة الاسطرلاب المسطح إلى بطليموس اعتماداً على كتاب بطليموس في تسطيح الكرة والذي يعني أكثر ما يعنيه أن بطليموس ربما كان العالم النظري له، لوقوفه على قواعد تسطيح الكرة ولم نعرف - في حدود معرفتنا- كتاباً لبطليموس في الاسطرلاب المسطح . ويؤكد البيروني ذلك حين يقول : «لم نعثر لأحد من القدماءعلى كتاب في استعمال الاسطرلاب المسطح غير كتاب ابيون البطريق ...» [١٩]. والذي عاش في حدود الاسلام، قبله بيسير أو بعده بيسير[٢٠] ويذكر أيضاً أن أهل الشرق ويقصد أهل الهند لايعرفون الاسطرلاب ولايهتدون لغير استعمال الظل بدله.[٢١]

وقد جاء في الفهرست أن أول من عمل الاسطرلاب في الاسلام هو ابراهيم ابن حبيب الفزاري (ت١٨٠هـ/٧٩٦م) :«وعمل مبطحاً ومسطحاً وله من الكتب ... كتاب العمل بالاسطرلاب وهو ذات الحلق، وكتاب العمل بالاسطرلاب المسطح.» [٢٢]. وحين بحثنا عن معنى المفردتين (مبطّح) و (مسطّح) في معاجم اللغة [٢٣]، وجدنا أنهما مترادفتان وتفيدان المعنى ذاته، إلا أنهما - كما جاء في الفهرست - لاتفيدان الغرض ذاته. فذات الحلق وهي إحدى التسميات التي كانت تطلق على الاسطرلاب الكروي، خطأ في رأيه إذ أنها آلة مستقلة ولاتعّد من أنواع الاسطرلاب، وتكون بنزع العنكبوت عن الاسطرلاب الكروي واستبدالها بحلقات عددها من خمس إلى سبع متداخلة ترصد بها الكواكب ولم يعدها الخوارزمي من أنواع الاسطرلابات [٢٤] كذلك لم يفعل تقي

الدين الراصد (ت٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م) في سدرة منتهى الأفكار [٢٥]، علماً أنه قد عرّف بها وذكر أنواعاً عديدة من الاسطرلابات ولم يذكرها بينها. فإذا كانت تسمية آلة ذات الحلق بالاسطرلاب أمراً شائعاً، فإنه على الأرجح يكون المقصود بها الاسطرلاب الكروي أو أن يكون الفزاري قد ألف في الاسطرلاب وفي ذات الحلق وفي الاسطرلاب المسطح ويكون خطأ الناسخ حينها في الفهرست بتبديله كلمة (في) بـ(هو) ، وفي هذه الحالة يكون السؤال هو مانوع الاسطرلاب الذي وضعه الفزاري؟.

لقد جاء في مفاتيح العلوم أن الاسطرلاب المبطّح من أنواع الاسطرلابات والتي «أساميها مشتقة من صورها كالهلالي من الهلال والكرّي من الكرة والزورقي من الزورق والصدفي والمسرطن والمبطّح ...» وفي هذه الحالة لا يكون المبطح هو الكروي، خاصة وإن الخوارزمي قد شرح كلا النوعين (الكروي والمسطح) قبل أن يعدد أنواع الاسطرلابات. وإذا كان التسطيح المستخدم يحدد نوع الاسطرلاب واسمه مشتق من شكله فإنه لن يكون المبطّح هو الكروي، رغم مايوحي به كلام ابن النديم فيما يتعلق بنسبة وضع الاسطرلاب الكروي إلى بطليموس مرة والمبطّح مرة أخرى .[٢٦].

لقد درس البيروني في كتابه (استيعاب الوجوه الممكنة في صنعة الاسطرلاب) الاسطرلاب المبطّح ووصفه وأوضح رسومه وقال إنه يأخذ من الكروي مداراته ومن المسطّح صورته وأن مبدأ تسطيحه يقوم على طريقة من طرائق التسطيح المخروطي التي عرفها الرياضيون وجهلها الفرغاني (عاش في فترة المأمون) وكان الفرغاني قد نسب هذا النوع من الاسطرلابات في كتابه الموسوم (بالكامل) إلى يعقوب ابن اسحاق الكندي (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) واعترض عليه ورفض فكرة قبوله من أنواع الاسطرلاب [٢٧]. إن الاسطرلاب المبطّح كما وصفه البيروني قد يكون أحد الأشكال المنبثقة عن المسطّح خاصة وأن شكله الدائري يشبه المسطح ومنه نوعان شمالي وجنوبي كما في المسطح . وتجدر الاشارة هنا إلى أنه قد يكون هنالك تصحيح في كلمة المبطح وكان يراد بها (المبطخ) بالخاء وقد وردت عدة مرات في كتاب البيروني (استيعاب الوجوه الممكنة ..) أكثرها (بالخاء) علماً أن الناسخ يميز جيداً بين الحاء والخاء.

ومجمل القول أن الاسطرلاب المسطّح في المخطوطات والمصادر العربية يبدأ بأبيون البطريق على وجه شبه يقيني . أما اليقيني فهو أن الفزاري قد عمل الاسطرلاب المسطح وألف فيه واستعمله في رصده أيام كان في خدمة المأمون.

وإذا كانت بدايات الاسطرلاب المبكرة يحيطها شيء من الغموض إلا أن الاسطرلاب قد تطور على ايدي العلماء العرب على المستويين التقني والعملي التقني الذي أنتجت فيه أنواع جديدة في شكلها وعملها وبسيطة في استعمالها ، والمستوى العملي

الذي زادت إمكانيات العمل المتاحة به وكان اسطرلاب أبي سعيد السجزي (ت٤١٥ هـ/ ١٠٢٤م) الذي عمله على أساس أن الشمس هي مركز العالم والأرض والكواكب من حولها تدور كشفاً مدهشاً لم يعرف إلى أيام كوبرنيكوس. وتجدر الإشارة إلى أن أقدم الاسطرلابات الموجودة اليوم وجدت في المشرق وتعود إلى أصل عربي وظهرت إبان الحضارة العربية في القرون الوسطى.

إن أقدم اسطرلاب في الوجود اليوم ربما كان الموجود في متحف بغداد والذي يعود إلى حوالي سنة (١٨٤هـ/ ٨٠٠م) وقد زودت شبكته بسبعة عشر رأساً تمثل النجوم تدل على مواقعها هذه الرؤوس وله عدة صفائح وليس هنالك علامات على ظهره (٢٨).

وفي متحف الكويت الوطني أيضاً اسطرلاب من صنع رجل يدعى نسطولوس صنعه عام (٣١٥هـ/ ٩٢٧م) (٢٩) كما لأحمد بن خلف غلام علي بن عيسى اسطرلاب صنع عام (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م) للخليفة جعفر المكتفي بالله العباسي (ت ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م) زوّد بأربع صفائح في كل صفيحة عرضان جغرافيان وخالية من دوائر السموت (خطوط الطول) عدا صفيحة واحدة وفي الشبكة سبعة عشر نجماً فقط (٣٠) مما يدل على أن الاسطرلابات كانت في بدايتها.

**فوائد العمل بالإسطرلاب :**

يمكن باستعمال الاسطرلاب معرفة الكثير من المسائل ومنها : أخذ ارتفاع الشمس ومعرفة وجودها في أية درجة من أي برج في أي يوم كان ومعرفة ميلها وميل الكواكب وغايات ارتفاعها واستخراج عرض البلاد منها ومعرفة أقواس الليل والنهار وساعاتهما المستوية والزمانية واستخراج الظل من الارتفاع ومقدار الارتفاع من الظل وتعيين أوقات الصلاة والفجر والشفق وسعة المشرق والمغرب وزاوية سمت أي ارتفاع وسمت القبلة والجهات الأربع والقبلة في أي وقت وفي أي بلد والبعد بين بلدين وسمت أحدهما بالنسبة للآخر والمطالع الفلكية والبلدية وحساب الوقت .كما تجرى به العمليات التي تتعلق بسطح الأرض كتعيين ارتفاع الأجسام وعمق الآبار وسعة الأنهر وجهة جريان مياهها وحساب البعد بين مكانين ... إلى غير ذلك من المسائل، وهي كثيرة تدل على أهمية هذه الآلة التي اعتنى بها العرب وطوروها وابتكروا أنواعاً جديدة منها أهدوها إلى العالم وبقيت إلى الآن شاهداً على عبقريتهم دالة إلى فضلهم وتأثيرهم في تطور علم الفلك تأثيراً قوياً دام سبعة قرون ليصل إلى ماهو عليه اليوم. ■

## الهوامش:

(١)- حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - العمود (١٠٦-١٠٧) .

(٢) - كنج - « THE ORIGIN OF THE ASTROLABE» مجلة تاريخ العلوم العربية ص٤.

(٣) - كنج - ( The Origin of The Astrolabe) ، ص٦٢.

(٤) - ندا طه - اللغة الفارسية - ص٨٦.

(٥) - البيروني - إفراد المقال في أمر الظلال - ص٦٩.

(٦) - الحسيني الموصلي - أبو محمد عبد الله - سوانح القريحة في شرح الصفيحة تحقيق د. صباح محمود محمد ص١٢ .

(٧) - الخوارزمي - أبو عبد الله محمد بن يوسف - مفاتيح العلوم ص ١٣٤.

(٨) - البيروني - التفهيم لصناعة التنجيم - ص ١٩٤.

(٩) - أبو نصر القمي - المدخل إلى علم أحكام النجوم - مخطوطة استانبول فاتح ٤٣٢٧، ق٤٤و.

(١٠) - الخوارزمي - مفاتيح العلوم - ص ١٣٤.

(١١) - نلينو كارلو - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة العربية ط١ - ج٢ - ص ١١٤ - ١١٨.

(١٢) - عرف الاسطرلاب المسطح أيضـاً بذات الصفائح . انظر مخطوطة (المقيـاس المرجح في العمل بالاسطرلاب) المنسوبة للبيروني - دار الكتب المصرية طلعت ميقات ١٥٥، ق١ظ - ٢ظ.

(١٣) - فيرنيه جوان - تراث الإسلام - سلسلة عالم المعرفة - الطبعة الثانية/ج٢ ص٣٢٢.

(١٤) - البيروني - تسطيح الصور وتبطيح الكور - تحقيق أحمد سعيد سعيدان ص ٨.

(١٥) - البيروني - المقياس المرجح - ق١ظ-٢ظ.

(١٦) - البيروني - المقياس المرجح - ق١ظ - ٢ظ.

(١٧) - ابن خلكان - وفيات الأعيان - ص١٨٤ -١٨٥.

(١٨) - ابراهيم بن سنان بن ثـابت بن قرة - رسالة في الاسطرلاب - مجموعـة رسائل ، دائرة المعارف العثمانية ط١ - حيدر اباد الدكن - ١٩٤٨م .

(١٩) - البيروني - رسالة في الاسطرلاب - باريس - ٢٤٩٨ - ق١ظ ٢و .

(٢٠) - ابن النديم - الفهرست ص٣٣٠.

(٢١) - البيروني - إفراد المقال - ص٦٩.

(٢٢) - ابن النديم - الفهرست - ص ٣٣٢.

(٢٣) - سطح = بطح = بسط ، في المعاجم (متن اللغة، لسان العرب ، تاج العروس).

(٢٤) - الخوارزمي - محمد عبد الله بن يوسف الكاتب - مفاتيح العلوم - ص ١٣٦.

(٢٥) - حاجي خليفة - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - العمود ١٤٦-١٤٧.

(٢٦) - ابن النديم - الفهرست - ص٣٢٧.

(٢٧) - البيروني - استيعاب الوجوه الممكنة في صنعة الاسطرلاب - مجلس شورى إيران .

(٢٨) - Dr. King , The development of the astrolabe. seri. NO = 16 p(7-14).

(٢٩) - المؤمن عبد الأمير ، التراث الفلكي ص ٩٢.

(٣٠) - مايزال هذا الاسطرلاب محفوظاً في المكتبة الوطنية بباريس.

# الأرعن الطمّاح

**ولّد اللقاء مع الطبيعة في شعر الأندلسيين موقفاً جديداً، فلم يعد الشعر رصداً للمشاهد دون ترابط جمالي فنّي يوحّد ويربط فيما بينها، بل تجاوز ذلك عند ابن خفاجة على نحو خاص..**
**وتُقدّم قصيدة «الأرعن الطمّاح» مثالاً مهماً لهذه الجمالية الموحدة بين الجبل الأرعن والنفس الإنسانية، والتي تكشف عن شبكة غنية من العلاقات بين الطبيعة وبين النفس البشرية.**

بقلم: الدكتور عمر الأسعد



شغف الأندلسيون بطبيعة بلادهم الجميلة، واستلهموا من جمالها الأخاذ كثيراً من فنون القول في الشعر والنثر. وحرّكت هذه المظاهر فيهم مشاعر الإحساس بالجمال حتى هتف فيهم ابن خفاجة صائحاً:

يا أهل أندلسٍ لله دَرُّكمُ
ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ماجنّةُ الخُلد إلاّ في دياركمُ
ولو تخيّرتُ هذي كنتُ أختارُ

وقد شمل هذا التفاعل مع جمال الطبيعة وصف مختلف جوانب هذه الطبيعة الخلاّبة؛ فقد وصف شعراء الأندلس البساتين بألوانها الزاهية وبُسطها الخضراء المنبسطة المترامية، وأُخذوا بالجبال الشامخة والأطوار العالية، فوقفوا على سفوحها يتملّون جمالها ويستجلون عظمتها. ووقفوا على شواطىء البحار التي تطوّق جزيرتهم، وعلى حفافي الأنهار وضفافها فراعهم خريرها وتدفق مياهها. واشرأبّت أعناقهم إلى السماء فوجدوا في سحرها وزينتها من الكواكب المتلألئة أجمل لوحة صاغَتْها يد صَناع وأبدعَتْها قدرة الخالق العظيم، فأبدعوا في وصفها وأجادوا.

ولم يكن وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي في كثير من الأحيان ردّ فعلٍ لإحساس الشاعر وتأثره بجمال ما يراه، يترجمه في وصف المنظر والإحاطة بتفاصيل اللوحة وجزئياتها؛ بل تجاوز ذلك إلى مايمكن أن نطلق عليه البعد النفسي الذي أكسب الوصف بعداً جديداً، فاستحال بذلك من وصف ظاهري للمشهد إلى وقفة تأمل عميقة، يجد فيها القارئ متعة فكرية ووجدانية راقية تحلّق بأحاسيسه ومشاعره، وترتقي بها إلى عالم عُلْوي من المناجاة ومحاورة النفس واكتناه الحقائق.

وقد اخترت أن أقف عند قصيدة لشاعر أندلسي، وردت ديباجتها في كتب الأدب «في وصف الجبل»، وأوردها الشاعر- الذي رتّب ديوانه بنفسه- تحت عنوان «قال في الاعتبار»، فكأنه أحسّ بأن قصيدته تتجاوز الوصف الظاهري إلى التدبر والتأمل، وإلى مايقودان إليه من العبرة والعظة، ناظراً إلى قوله تعالى «وإلى الجبال كيف نُصبت» (١).

أما الشاعر فهو الذي هتف بأهل الأندلس في مطلع الكلام، يغبطهم على فوزهم بجنّة الله في أرضه، إنه ابن خفاجة (٢). ( ٤٥١ - ٥٣٣ هـ) الذي أُخذ بسحر الطبيعة وجمالها، فالتفت إليها بكلّيته، فأنطق بساتينها واستنطق جبالها، وأضفى عليها كثيراً من عناصر اللون والحركة، حتى غدا شعره الوصفي صوراً زاهية بألوانها، متحركة بدفقات الحياة تضجّ بها وتحيط بها من كل جانب. وهل نتوقع في وصف زهرة من اللون والحركة أكثر مما جاء في قوله:

ومائسةٍ تُزهى وقد خلع الحيا
عليها حلىً حمراً وأرديةً خُضرا
يذوب لها ريق الغمائم فضةً
ويجمد في أعطافها ذهباً نَضرا؟

**أو قوله في وصف نهر :**

لله نهرٌ سال في بطحاء
أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطّف مثل السّوار كأنّه
والزّهر يكنفه ، مجَرّ سماء
قد رقّ حتى ظُنّ قرصاً مُفْرغاً
من فضةٍ في بردةٍ خضراء
وغَدَتْ تحُفُّ به الغصوُن كأنها
هُدْبٌ يحفّ بمقلة زرقاء
والماءُ أسرع جَرْيَه متحدّراً
متلوّياً كالحيّة الرقطاء
والريح تعبثُ بالغصون وقد جرى
ذَهَبُ الأصيل على لجين الماء؟!

ولم يكتف بذلك بل أدار بينه وبين الطبيعة حوارات ماتعة نقلت إلينا أدقّ خلجات صدره وخفقات قلبه، فاستحق أن يلقّب بشيخ شعراء الأندلس في وصف

الطبيعة[٣]..

حفل الشعر القديم بقصائد وقفها أصحابها على وصف الرحلة في الفيفاء، وذكر مايكابدونه في قطع المسافات ومواجهة المخاطر، والمعاناة من مشقة السفر ووعثائه، حتى يصل أحدهم إلى غايته. وينتهي الأمر وتبقى قصيدة الشاعر في حدود مارُسم لها من وصف مادي، إن كانت تتجلى فيه دقة الملاحظة وبراعة التشبيه فإنه لايحمل وراءه شيئاً من معاني العبرة ومساءلة النفس. أما شاعرنا ابن خفاجة فقد صاغ قصيدة له في السرى صياغة جديدة؛ فقد استوقفه في سراه مشهدٌ كثيراً مايمّر به الناس ولايلفت نظر أحد منهم: جبل شامخ منطو على نفسه كأنه عابد متبتّل غارق في التفكّير، أو زاهد اعتزل الناس وراح في إطراقة عميقة.

في مقدمة القصيدة يصف الرحلة في الليل وقد طوّحت به الريح الهوجاء والنجائب القوية، فتهادته الفيافي وأسلمته الواحدة منها إلى ماوراءها، تلفّه وحشة الانفراد والظلمة المستطيلة، لاأنيس له سوى الأماني ولاملجأ إلا قتود الركائب:

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب
تخُبُّ برحلي أم ظهور النّجائب
فما لحُتُ في أولى المشارق كوكباً
فأشرقتُ حتى جُبْتُ أخرى المغارب
وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي
وجوه المنايا في قناع الغياهب
ولاجارَ إلاّ من حسامٍ مصمّمٍ
ولادار إلا في قتود الركائب
ولاأُنْسَ إلاّ أن أضاحك ساعةً
ثغورَ الأماني في وجوه المطالب
وليلٍ إذا ماقلتُ قد باد فانقضى
تكشّفَ عن وعد من الظّن كاذب
سحبتُ الدياجي فيه سود ذوائبٍ

لأعتنق الآمال بيضَ ترائب
فمزّقتُ جيب الليل عن شخص أطلس
تطلّع وضاح المضاحك قاطب
رأيتُ به قطْعاً من الليل أغبشاً
تأمّلَ عن نجمٍ توقّدَ ثاقب

ثم ينساق إلى وصف الجبل في أبيات قليلة، صوّر فيها شموخه ومطاولته النجوم ومزاحمتها، وارتفاعه الذي جعل له من الغمائم عمائم، ومن وميض البروق ذوائب، ووقاره وإطراقه شأن حكيم طالت جلسته في التأمل والتفكر:

وأرعن طمّاح الذؤابة باذخٍ
يطاول أعنان السماء بغارب
يسدّ مهبّ الريح عن كلّ وجهة
ويَزْحَمُ ليلاً شُهْبَهُ بالمناكب
وقورٍ على ظهر الفلاة كأنه
طوال الليالي مُطْرقٌ في العواقب
يلوث عليه الغيمُ سودَ عمائمٍ
لها من وميض البرق حمْرُ

ذوائب

وفي القسم التالي من القصيدة تتجلّ الجدّة في الأفكار والبراعة في التصوير والقدرة على التجسيم، فقد جعل من الجبل شخصاً يقف إزاءه يحادثه ويستمع إليه، ويُنطقه بما مرّ به من أحداث وماشهده من وقائع:

أصختُ إليه وهو أخرس صامتٌ
فحدّثني ليلُ السرى بالعجائب
وقال ألا كم كنتُ ملجأ فاتك
وموطن أوّاه تبتّلَ تائب
وكم مرّ بي من مُدْلجٍ ومُؤَوّب
وقال بظلّيَ من مطيٍّ وراكب
ولاطَم من نُكْبِ الرّياح معاطفي
وزاحم من خُضْرِ البحار جوانبي
فما كان إلا أن طَوَتهم يدُ الردى
وطارت بهم ريح النّوى والنّوائب
فما خَفْقُ أيكي غير رجفة أضلعٍ
ولا نَوْحُ وُرْقي غير صرخة نادب
وما غيّضَ السلوان دمعي وإنما
نزفتُ دموعي في فراق الأصاحب
فحتّى متى أبقى ويظعن صاحب
أُودّعُ منه راحلاً غير آيب؟
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً
فمن طالعٍ أخرى الليالي وغارب؟
فَرُحماكَ يامولاي دعوةَ ضارعٍ
يَمُدُّ إلى نعماكَ راحةَ راغب
وهذا البوح الذي باح به الجبل يلفّه هاجس ألحّ على الشاعر بقوة، وتكرّرذكْره على لسانه في مواطن مختلفة من القصيدة، ألا وهو هاجس الموت والفراق الأبدي الذي يخشاه الشاعر أيّما خشية، وترتاع له فرائصه ويخفق له قلبه. ولو وقفنا على بعض جوانب حياته لقلنا إن ذلك انعكاس لنفسيته القلقة المتوترة؛ فقد نشأ في عهد ملوك الطوائف وتوفر على اللهو والمجون، ثم ارتحل عن موطنه إلى عُدوة المغرب، وخَبَتْ في هذه الفترة من حياته شاعريته وانقطع عن قول الشعر. ثم عاد إلى وطنه بدخول أمير المرابطين إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين الأندلس واستقامة الأمر له فيها، مهنئاً بالولاية مسرفاً في مدح أمراء المرابطين، مودّعاً حياته اللاهية الأولى(٤)..

وقد روي أنه كان يخرج من منزله إلى الخلاء فيصيح: ياإبراهيم تموت! فيردّد الصدى كلماته، ثم يعيدها فيعود إليه الصدى، وهكذا حتى يخرّ مغشياً عليه(٥)..

وفي آخر حياته أحسّ بالوحدة والوحشة وثقل الحياة وقد طال به العمر ورحل عنه أصحابه واحداً في إثر الآخر، ولم يتزوج ولم يذق طعم الحياة الأسريّة واستقرارها. وقد انعكست على شعره هذه المكونات النفسية لشخصيته، على صغرها أحياناً وقلة الاهتمام بها والالتفات إليها. ففي هذا المقطع من القصيدة إلحاح على الفكرة التي ملأت نفسه، وتنفيس لمشاعره الحزينة

الخائفة أبداً من الفراق والموت. فهو يكررها غير مرة، ويبدىء فيها ويعيد:

فما كان إلا أن طوتهم يد الرّدى
فحتى متى أبقى ويظعن صاحب
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً
فما خفق أيكي غير رجفة أضلع
وماغيّض السلوان دمعي

وهـذه حقيقة مقـررة في علم النفس تجعل مـايدور في خَلَد الإنسـان شُغْلـه الشـاغل يستولي على عقله البـاطن، ويستعيره لسانه من فـؤاده وينطلق بها فلتات يكررهـا ويلحّ عليها.

والواقف على هذه المنـاجاة وقد استمع إلى هذا البوح والشهـادة يدلي بها الجبل، يتوقع أن يتلقى حـواراً يـردّ فيـه الشـاعـر على صاحبـه ويبادله الفكر والأحـاسيس. ولكنه لم يَـرَ شيئاً من ذلك، بـل اكتفى الشـاعـر بـالتقـاط العبرة والتسريـة عن النفس بما سمع والسكـوت عليـه- والسكوت عـلامـة الموافقـة- فهمـومهما واحـدة وشكـواهما مشتركة لازيادة فيها لمستزيد:

فأسمعني مـن وعظـه كل عِبرة
يترجمهـا عنـه لسان التجـارب
فسلىّ بما أبكى وسرّى بما شجـا
وكان على ليل السرُى خير صاحب
وقلتُ وقـد نكّبْتُ عنـه لطّيـة:
سـلامٌ، فإنّـا من مقيم وذاهب

والمدقق في هـذه النتيجـة التي صـاغهـا الشاعر مختصرة مبتسرة، يستشعر الحالة النفسية التي يطويها بين جـانحيه، وتؤرقه أيّما إيراق وتشغل ذهنـه لاتنفكّ عنه، وهي خوفه من المصير المحتـوم وهو الفناء المقرر على بني البشر:

وقلتُ وقـد نكّبتُ عنـه لطيّـة :
سـلامٌ، فإنّـا مـن مقيم وذاهب

فمنـاجـاة الجبـل ذكّـرتـه بهذا المصير وهـوّنت عليـه أمـره، وكـانت مسلاةً لـه وسلوى لأحزانه ومخاوفـه التي سدّت عليه طرقه في هذه الرحلة الطويلة.

القصيـدة تضجّ بـالحركـة والصـور التشبيهيـة، لايكـاد يخلـو بيت من صـورة فنية أجاد فيها الشاعر وأبدع. وللقارىء أن يجول في ميدان هـذه الصـور ليَخْلُصَ من ذلك إلى قدرة الشاعر على التصوير وبراعته في الجمع بين المتنـاقضـات والمقابلـة بين الأشياء.

لننظر إلى هذه الصورة وقد لاطمت الرياح النكبـاء أعطـاف الجبل، وزاحمت البحـار الخضراء جـوانبـه. ولندقّق في اختيـار هـذا الفعل (لاطم) الذي قصد به المشاركة فكأنه حـرّك الجبل فجعل يـلاطم الريـاح أو يـردّ لطماتها، لايستكين إليها بل يتلقّاها مقاوماً.

ثم هـو يقفنا على تعبير جديـد حين يجعل البحار الخضراء تـزاحم الجبل وتسـدّ عليه طرقه.

ولننظر إلى الصـورة التي جعل فيها خَفْق

الأيك في الجبل رجفة ضلوعه، ونَوْح الوُرْق فيه صرخة بكائه؛ فهو قد خلع على الجبل الحياة فجعل له ضلوعاً تخفق وحنجرة تصوّت، وهذا الخفقان والأنين تعبير عن الخوف والاضطراب الذي يلفّه.

لم تحتَج القصيدة إلى إيقاع خارجي يضفيه عليها البحر العروضي والقافية المختارة، بل اكتفت بموسيقاها الداخلية، تأنّق الشاعر في اختيارها، فاستمدت إيقاعها منها، فغدت حافلة بالتوقيع الحزين و«اللحن الجنائزي». فكأنه بهذه القصيدة ينعى الناس إلى أنفسهم ويذكّرهم بمصائرهم.

وقد ساعد في إبراز هذا التوقيع الخفي وإظهاره ماتوسّل به الشاعر من بعض العبارات الشعرية والألفاظ المتوافقة التي شكلت بمجموعها قطعة موسيقية حزينة، تقرع الأسماع بإيقاعها الرتيب. وكأنّا بكل عبارة أو تركيب لغوي جملة موسيقية التحمت مع مثيلاتها فأخرجت هذه القطعة أو اللحن المتكامل الذي يملأ الأسماع والقلوب جميعاً:

طوتهم يد الردى،
طارت بهم ريح النوى
حتّى متى أبقى
سلِّ بما أبكى
سرّى بما شجى
سلام فإنّا من مقيم وذاهب

لجدير بهذه القصيدة أن تبقى مثالاً بارزاً من أمثلة الوصف الحي، لكائن صامت جامد خَلَد على الزمان وخلّد معه الوصف في الشعر العربي والأندلسي بخاصة. ■



**حواش :**

(١) الغاشية ١٩

(٢) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١: ٣٩ ، وقلائد العقيان ٢٣١، ٣٠٤، والروض المعطار ٤٨، ١٠٣. وانظر أيضاً مقدمة الديوان، وتاريخ الأدب الأندلسي لإحسان عباس ص ٢٠٤ ومابعدها.

(٣) بل لقد خلع عليه بعض الباحثين لقب «شاعر الطبيعة الأول في الأندلس وغيرها في أدبنا العربي» انظر تاريخ الأدب الأندلسي ص ٢٠٤.

(٤) انظر مقدمة ديوانه.

(٥) انظر بغية الملتمس ص ٢٠٢.

**مراجع :**

- ديوان ابن خفاجة – بيروت ١٩٥١.
- تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين- إحسان عباس، بيروت ١٩٨١
- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، لاحمد بن يحيى الضبي- مدريد ١٨٨٥- وفيات الأعيان لابن خلكان- القاهرة ١٣١٠ هـ .

# علم الوثائق

د. ليلى الصباغ.

**وقد يتساءل، وهل كان لدى العرب في العصور الإسلامية «علم وثائق»، أو مايسمى في الغرب بـ «علم الدبلوماتيك»؟ ذلك العلم الذي انبثقت تسميته من كلمة «دبلوم» التي نستخدمها نحن العرب اليوم أحياناً بمعنى «شهادة» أو«إجازة علمية»، والتي تعني عند الغرب أيّ مدون يصدر عن هيئة قانونية، يمنح حقاً أو لقباً أو يثبته ومن ثم كانت مدوّنات الدولة لديهم «دبلومات» أو «وثائق».**

«وعلم الدبلوماتيك» هو ذلك العلم الذي يدرس تلك «الوثائق» وتطورها، منذ أن تكون الوثيقة فكرة في ذهن صاحبها وحتى يتم إصدارها؛ بل ويتابع تطوّرها منذ تدوين حروفها الأولى وحتى تحريفات النساخ لها. كما أنه يبحث في تطوّر صيغ تلك الوثائق عبر العصور، ويحاول أن يفسرّها، ويتعرف بدقة المؤسسات التي أصدرتها، ويبين القواعد النقدية التي يجب تطبيقها عليها، للتأكد من أصالتها. وهذا العلم، كان ولايزال من العلوم المساعدة الأساسية لعلم التاريخ، لأنه بتعرّفه الوثيقة وتحليلها، ونقدها، وتحديده لتاريخها، ومؤلفها، ومصدرها، ونصّها، وعناصرها، وأصلها، ونسخها، يهُيّئها للمؤرخ، وبذلك يوفر عليه جهداً كبيراً، ولاسيّما أنّ «الوثائق» هي مادة العمل الأولى له.

وفي الواقع، لم يكن مؤرخو أوروبا في العصور الوسطى يستخدمون كثيراً «وثائق الأرشيفات» على الرغم من غناها، وعلى الرغم من أن مؤرخي العصور القديمة قد سبقوهم في هذا المضمار؛ وكانوا يجهلون في الوقت ذاته طرائق النقد، ومبادىء «علم الوثائق». وقد استفاقت أوروبا لقيمة «الوثائق الرسمية» قبيل منتصف القرن الخامس عشر، عندما أعلن المفكر الإنساني «لورنزو فالا» سنة ١٤٤٠م، زيف «هبة قسطنطين» وهي الوثيقة التي كان يعتمد عليها «البابا» في رومة، في تثبيت نفوذه وسلطته. وقد أثبت ذلك بطرائق نقدية عقلانية، جعلت الغرب ينظر إلى تاريخ ذلك الإعلان، على أنّه التاريخ الرمزي لانبثاق المنهج العلمي في البحث التاريخي. ولكن قواعد النقد الوثيقي وأصوله، المستند إلى دراسة دقيقة للوثيقة من جميع الوجوه، لم تتأصل إلاّ في أواخر القرن السابع عشر، عندما أصدر البندكتي الفرنسي «دوم مابيون» سنة ١٦٨١ كتابه الشهير «حول

الشؤون الوثائقية». فقد جمع فيه عدداً كبيراً من الوثائق الهامة، وطرح «الطريقة التحليلية» في النقد، المعمول بها حتى الآن، والتي تستند إلى أساليب محكمة من المحاكمة المنطقية، وتابع البندكتيون الفرنسيون جهود «دوم مابيون» وأصدر اثنان منهما (دوم توستان، ودوم تاسان) بين (١٧٥٠ - ١٧٦٥) كتاب «المعالجة الجديدة لعلم الوثائق». ورأى القرن التاسع عشر في أوروبا أعمالاً ضخمة، وعلمية دقيقة، فيما قدّمته المدرستان الفرنسية، والألمانية في هذا الميدان. وقد تميّزت المدرسة الأولى بمجموعات الوثائق الكبيرة التي نشرها عديد من علمائها، بينما اتجّهت المدرسة الثانية للدراسات النظرية للوثيقة، وقواعد نقدها، وتطويرها.

والآن، وبعد ذلك التمهيد، ماموقع العرب في العصور الإسلامية من مثل هذا العلم؟ إنّ من ينكب على دراسة النظم الإدارية في الدولة العربية الإسلامية، منذ نشأتها الأولى في عهد الرسول (ص)، وحتى سقوط الخلافة العباسية نهائياً سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، يرى أنها قد أولت «التوثيق المدوّن» عناية كبيرة، بل واهتماماً فائقاً: وما تدوين القرآن الكريم أولاً، والرسائل التي بعث بها الرسول (ص) إلى ملوك عصره وأمرائه، يدعوهم فيها إلى الإسلام، إلاّ النواة الأولى في ذلك التوثيق. وقد سارت الدولة الناشئة على هذا الهدي، فعملت على تدوين معظم أمورها في عهد الخلفاء الراشدين، مع تحديد أزمانها، ولاسيّما بعد أن ابتدعت «التقويم الهجري»، فزادت بذلك التوثيق تأصلاً ودقة. وأوكلت الأمر إلى مؤسسة أطلقت عليها اسم «الديوان». ولم تلبث أن أسّست، وبحسب متطلبات توسّعها، وتفرع قضاياها، لكل حقل عمل فيها، «ديواناً» خاصاً. وأسرعت فعرّبت تلك الدواوين في عهد «عبد الملك بن مروان»، بعد أن كانت تكتب باليونانية في مصر والشام، وبالفارسية في العراق. وتكاثرت الدواوين، فمن ديواني الجند والخراج إلى دواوين الرسائل، والخاتم، والبريد، والمستغلات، والنفقات،والصدقة، والطراز، والمصادرات، وبيت المال (بتفرعاته)، والأحشام، والزمام، والمظالم، والموالي، والبر، والمواريث وغيرها. هذا بالإضافة إلى بعض الدواوين المماثلة في الولايات. وعندما انفصلت الدول عن الخلافة العباسية، كان لها هي الأخرى دواوينها العديدة، ولاسيما في مصر.[1]

ويشعر الباحث التاريخي اليوم، أمام ذلك الزخم من الدواوين المتنوعة، بإحباط وحسرة، لأنه قد ضاع عليه الكثير، عندما لم يصله من وثائق تلك الدواوين إلاّ النزر اليسير جداً، إذ أنّ معظمها قد فُقد بسبب الأحداث التي تناوبت على العالم العربي الإسلامي، من اجتياحات فرنجية، وتترية، وثورات داخلية، وحوادث طبيعية مدمّرة، وحرائق وغيرها، ولم يتبق بين الأيدي، إلاّ مادوّنه بعض الكتّاب والمؤرخين في مؤلفاتهم منها، أوماكان مخبأ، وكشف صدفة، كـ«البرديات»[2]، و«وثائق الجنيزة»[3]

وغيرها.

ويعود الباحث التاريخي مرة أخرى للتساؤل أمام الفيض الأصلي للوثائق، الذي كانت تضمّه مختلف دواوين الدولة، ألم يسع مؤرخو الماضي، أو الكتّاب العاملون في تلك الدواوين، أن يُنشئوا علماً لتلك الوثائق على غرار «علم الوثائق» الغربي؟ إن المتتبّع للتأليف الأدبي والتاريخي العربي، عبر العصور الإسلامية، يلاحظ أنّ عدداً كبيراً من المؤرخين قد أدرك ومبكّراً، قيمة «الوثائق الرسمية» مصدراً للخبر، ودعماً، وتفسيراً، فأوردوا منها في مؤلفاتهم، وأحياناً بنصوصها كاملة. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: اليعقوبي (المتوفى بعد ٢٩٢ هـ / ٩٠٤ م) في تاريخه، و«البلاذري» (المتوفى ٢٧٩هـ/٨٩٢م) في كتابه أنساب الأشراف، وكذلك فعل «الطبري» (المتوفى ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م) في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»، و«العماد الأصفهاني» (المتوفى ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) في كتابه «البرق الشامي»، «وابن الجوزي» في «المنتظم في تاريخ الملوك» وغيرهم.

وهناك اليوم محاولات جادة لالتقاط تلك الوثائق من مختلف المؤلفات التاريخية، وجمعها في مؤلفات خاصة، بحسب زمانها ومكانها، وإن كان حولها شكوك، أي هل أوردها المؤرخون الناقلون بأصالتها، أم خضعت لتبديل وتغيير! مهما يكن الأمر، إن طرح المؤرخين الماضين لتلك الوثائق في كتبهم، هو دون شك، جزء هام من المعرفة الوثيقية، إلاّ أنه ليس إلاّ بعضها. وقد سدّ ثغرة أخرى فيها، وهي هامة، المؤرخون الذين عكفوا على دراسة «نظم الدولة» دون أحداثها، كالخلافة، والوزارة، والحجابة، والكتابة، والدواوين وغيرها. فقد كان لابدّ لهؤلاء من الخوض في دراسة آلية عمل هذه المؤسسات، والاعتماد من ثم على المدونات الوثائقية الحكومية. ومن المؤلفات في هذا الباب، وعلى سبيل المثال لا الحصر، كتاب «الوزراء والكتّاب» «للجهشياري» (المتوفى ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م)، وكتاب «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» «للماوردي» (المتوفى ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) وكتاب «الفخري في الآداب السلطانية» لابن الطقطقي (المتوفى ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م)، وماورد في مقدمة ابن خلدون(المتوفى ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م). بل ووجد من كتاب الدواوين الكبار، ولاسيّما في ديواني الخراج والرسائل (المكاتبات، أو الانشاء)، من قام بجمع بعض تلك الوثائق في مؤلفات خاصة، إدراكاً منهم لقيمتها الكبيرة في التأريخ للمرحلة التي أُنشئت فيها، أولأسلوبها الأدبي، أو لتكون نماذج لمن يريد أن يعمل في الكتابة الديوانية. وبالمقابل، عمل فريق آخر من أولئك الكتّاب، على تدوين مؤلفات تحوي «دراسات نظرية» للوثائق، من حيث بنيتها، وأسلوبها، وطرائق المخاطبة فيها، أرادوا منها هداية الكتّاب الجدد إلى أساليب الانشاء الوثيقي؛ وطرحوا في تلك المؤلفات أيضاً، تثبيتاً لدراساتهم النظرية، نماذج من تلك الوثائق. وهذه النماذج قد تفيد الكتّاب المتمرنين في السير على نسقها، ولكنها لاتفيد

المؤرخ لأنها في معظم الحالات، كانت غفلاً من الأسماء والتواريخ. وقد ظهر هذا النمط من التأليف الوثيقي، بصفة خاصة، في القرن الرابع هجري/ العاشر الميلادي، وهو القرن الذي تكامل فيه نظام الدواوين ونضج وتتابعت مثل تلك المؤلفات في القرون التالية، ولاسيّما في مصر، في عهد الدولة الفاطمية، والأيوبية، والمملوكية، وبلغت في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي مستوى علمياً رفيعاً. ولابد من الإشارة هنا إلى أن بعض تلك المؤلفات لم يعثر عليه مع أهميته، بينما أخذ المؤرخون المعاصرون، العرب والأجانب، يعملون على نشر الموجود منه لقيمته الكبيرة لعلم الوثائق ولعلم التاريخ. وقد قدر عدد المؤلفات في هذا الباب، أكثر من خمسين مؤلفاً. ويمكن تصنيفها في ثلاث زمر:

■ الزمرة الأولى : كتب حوت مجموعة من الوثائق، وبخاصة «الرسائل»، ومثل على ذلك «رسائل أبي اسحق الصابي» كاتب الخليفة في العهد البويهي (المتوفى ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م)، ومجموعة رسائل «الصاحب بن عباد »وزير آل بويه، (المتوفى ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م) ، ومجموعة رسائل «القاضي الفاضل» (عبد الرحيم بن علي) كاتب «صلاح الدين الأيوبي» (المتوفى سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م).

■ والزمرة الثانية : مؤلفات تبحث في القواعد الخاصة بكتابة الوثائق، ونوعها، ومثل عليها كتاب «الخراج وصنعة الكتابة» «لقدامة بن جعفر» (المتوفى ٣٣٧ هـ / ٩٤٧ م )، «وأدب الكتّاب» للصولي (المتوفى ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م )، و «معالم الكتابة» «لابن شيت القرشي» تلميذ «القاضي الفاضل»، ورئيس ديوان الإنشاء بدمشق للمعظم بن الملك العادل الأيوبي، والمتوفى سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م.

■ والزمرة الثالثة : مؤلفات هي مزيج من النوعين السابقين، أي، تحوي دراسات نظرية شتى عن الوثائق، وإنشائها، وأنواعها، وبنيتها، ونسخها، وأصولها، والعاملين في بابها، بالإضافة إلى نماذج وثائقية مقتبسة من الواقع العملي. ومثل على ذلك كتاب «قوانين الدولة» «لابن مماتي» (شرف الدين الأسعد المهذب) من كبار موظفي المال في مصر، في العهدين الفاطمي والأيوبي (توفي ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م)، و«قانون ديوان الرسائل »«لابن منجب الصيرفي أبي القاسم علي»، صاحب «ديوان الرسائل» في الدولة الفاطمية في مصر (توفي ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م)، وكتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» «لابن فضل الله العمري» (المتوفى ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م)، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا «للقلقشندي» (المتوفى ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م). والكتاب الأخير، من أكمل الكتب التي درست الوثائق وأوفاها، وهو أشبه بموسوعة ضخمة. ولم يكتف صاحبها بدراسة وثائق عصره المملوكي فحسب، بل قام ببحوث تاريخية في ماضي الوثائق وتطوّرها، ولذا يُنظر إليه على أنه أبو «علم الوثائق العربي»، رغم التساؤلات الشكية

حول مدى صحة الوثائق الماضية التي بحث فيها، ومدى مطابقتها للأصل، ولاسيّما أنه يصرّح في بعض الأماكن بأنه استقاها من مصادر أدبية لا من الأرشيفات.

ويتضح من ذلك العرض السريع، أنّ المؤلفين العرب، على مدى العصور الإسلامية السالفة، قد أبدوا اهتماماً واضحاً بالوثائق الرسمية، إمّا لاعتقادهم بأهميتها لأنها الصلة بين الحكم والرعية، والدولة والدول الأخرى، أو لهدف تعليم العاملين في بابها، أو لقيمتها الكبيرة في التأليف التاريخي والأدبي، أو لمجرّد أنها نوع من المعرفة ضروري لتكامل المعرفة العامة. ويظهر من المعلومات الكثيرة والمتنوعة التي قدّموها عن «الوثيقة»، بأنهم أحاطوا بمختلف الجوانب التي يدرسها «علم الوثائق» النامي في الغرب، حتى قد يخطر ببال الدارس لتلك المؤلفات، ولاسيّما «القلقشندي»، أنّ الغرب قبل أن يُنشىء علم وثائقه قد اطّلع على ماكتبه المؤلفون العرب، للتشابه في منهج العمل: فقد بحث أولئك المؤلفون في «بنية الوثيقة» كما بحثها ويبحثها علم الوثائق الغربي، أي في ديباجة مقدمتها (الافتتاح)، وفي متنها (مابين السلامين)، وفي خاتمتها (الخواتم)، وتطوّر كل عنصر من تلك العناصر وصنّفوا الوثائق تصنيفاً دقيقاً جداً ومفصّلاً، بحسب موضوعها، ونوعها، والسلطة المصدرة لها، في كيفية إنشائها، والمراحل التي يتم بها تحريرها ونسخها، وبيّنوا العاملين في إخراجها، وميّزوا بين الأصل والنسخة، وأكدّوا مقابلة النسخة بالأصل، وأغلاط الكتبة والناسخين، ولغة الوثيقة وتطوّرها، وتأريخها ونوعيّته ومشكلاته، والمادة التي دُونت عليها وبها، والخط الذي كُتبت به، والكتابة السرية، والإشارات الخفيّة والرموز، والعلامة (التوقيع)، والخاتم وأنواعه، والدواوين التي تُصدرها، والهيئة المركبة منها، والأرشيفات التي تحفظها، والوثائق المزيّفة وكيفية نقدها وإثبات زيفها.

صُبحُ الأعشى
في
صِناعة الإنشا



تأليف
أحمد بن علي القلقشندي
المتوفى ٨٢١ هجرية - ١٤١٨ ميلادية

شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه
محمد حسين شمس الدين

الجزء الأول

- ضبطت وقوبلت على طبعة دار الكتب المصرية وعلى المصادر الأساسية لنصوص الكتاب.
- مذيلة باستدراكات وتصويبات وهوامش توضيحية.
- مستفيدة من الدراسات والأبحاث التي كتبت حول هذا السفر النفيس من مكتبتنا العربية.

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

وهكذا فالعرب كان لديهم إذاً «علم وثائق» غنيّ وصل إلى ذروته بمؤلف «القلقشندي»، إلاّ أنه على مايبدو، قد توقّف أو ركد في القرون التالية. والسؤال الآن، هل هناك من يعمل جاداً من المؤرخين والكتّاب، على دراسة وثائق الحاضر، وجمعها، وشرحها، ونقدها، كما فعل مؤلّفو القرون السالفة؟ إنّ مما لاشك فيه البتّة، أنّ مؤرخي الحاضر مؤمنون بشدة بقيمة «الوثيقة الرسمية» وهم يقومون بجهود كبيرة للبحث عنها في كل ركن، وجمعها، ودراستها بحسب مبادىء «علم الوثائق» الغربي المتطور، ويُشاركهم في ذلك «الوثائقيون» العاملون في «دور الوثائق» (المحفوظات) في مختلف الأقطار العربية، ولكن لابدّ لتلك الجهود أن تُنسق عبر «منظمة عربية للتوثيق»، حتى لاتبقى مشتتة، وحتى يصدر عنها «علم وثائق» عربي جديد، يعمل على دراسة «وثائق الحاضر»، الدراسة العلمية الدقيقة.■




**الهوامش :**

(١) انظر حول الدواوين وتطوّرها وتفرّعها بحث « ديوان Diwan » في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة (بالفرنسية) ج٢/ص ٣٢٢- ٣٤٧.

(٢) عُثر على تلك الوثائق في الفيّوم وإدفو من أرض مصر، كما عُثر على بعضها في فلسطين. وقد دُوّنت على البردي، وبعضها على ورق عادي. وترجع إلى المرحلة الممتدة من الفتح العربي الإسلامي لمصر حتى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وقد دُوّنت باللغة اليونانية، أو باليونانية والعربية، أو بالعربية فقط. وتقدّم معلومات ثمينة عن الجزية، والخراج، ونظم الإدارة، وأثمان السلع وغيرها. وقد درسها دراسة دقيقة كل من «غروهمان» و«نبيّا آبوت»، حتى عدّ بعضهم «غروهمان» بأنّه واضع أسس «علم الوثائق العربي» الحديث.

(٣) اكتشفت في الفسطاط في مصر سنة ١٨٨٩- ١٨٩٠ م، أثناء تهدّم كنيس يهودي. وهي صادرة عن الأوساط اليهودية في مصر، والمغرب، واسبانية، والهند. وقد كُتبت بالعبرية، أو بالعربية وإنما بأحرف عبرية. وتمسح حقبة من الزمن تمتد من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وحتى السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وقد درسها كل من «غويتاين» و«كاله».

# فن العمارة بين الأصالة وما بعد الحداثة

بقلم: الأستاذ الدكتور عفيف البهنسي
جامعة دمشق

**يطلق مصطلح الحداثة Modernism على المرحلة الأخيرة من تاريخ الإبداع في الغرب، والتي قامت على مناهضة الطبيعة والواقع ومعارضة التقليد والقديم.**
**ولقد تعرّض هذا الاتجاه إلى كثير من النقد، والغرض هو العودة بالإبداع إلى الجذور وربطه بشخصية حضارية محددة، وكان رأي خصوم الحداثة أنها وهي تعلن عن التقدمية فإنها تتجه نحو العدم والبربرية والتجريد، كما صرّح مرّة الأمير تشارلز في إحدى المناسبات.**

والواقع أن انحراف الإبداع الحديث، في المسرح والفن التشكيلي وفي الشعر وبخاصة العمارة، عن الطبيعة والأصالة، كان سبباً في شعور الناس، أنّ الإبداع يسير في ليل بهيم وأنه يتجه إلى «اللاشيء» و«اللامعقول» وإلى نقطة الصفر كما يقول هويغ.

لقد تبدّت الحداثة كثورة فنية منذ ظهور البيانات المستقبلية في بداية هذا القرن.

لقد كانت المستقبلية أكثر تعبيراً عن الثورة الإبداعية، عندما سارت في شوارع الليبرالية والتقدم الصناعي والآلي، لتنادي بسقوط الفن القديم والمتاحف، داعية «إلى التحرر من غرغرينا الجامعات وتجار التحف والمتحفيين، وإلى الانتصار للتكنولوجيا كبديل عن الأيديولوجيا»، وهكذا سار مع المستقبليين البنائيّون وجماعة الباوهاوس والدادا، وعندما وصلوا إلى منعطف في نهاية الشارع انطلقت جماعة السريالية تائهة في أعماق النفس والأحلام والعقد والانفصام.

ثم انحرفت جماعة أخرى أرادت أن تسير على أرض من الغمام باحثةً عن اللاشيء في التجريد، تمثّل ذلك في النحت والتصوير، كما تمثّل في العمارة العامة والخاصة.

لقد انتشرت تيّارات العمارة والفن الحديث أو الحداثة في أنحاء العالم واستهوت الناس في كل مكان؛ في الهند المحافظة وفي اليابان بلد الطبيعة المقدّسة وفي الدول العربية الإسلامية، وغيرها ومع أننا حتى اليوم، لم نتقبل هذه الحداثة إلاّ ضمن مؤثرات التيارات الثقافية الغربية، ومن خلال الوهن النفسي الذي تحكمت فيه عقدة الدونية، فإن الغرب ذاته كان الأسبق لمعارضة الحداثة. يقول فيلسوف فرنسي معاصر هو، ج- ف ليوتار Lyotard :

«لقد تدهورت الثقة بالتقدّم الذي سعينا إليه خلال القرنين الماضيين، ونحن نعيش اليوم نوعاً من الأسى واليأس، إذ إن الفن لايتقدّم، ولسنا متأكدين أنّ تقدّم التكنولوجيا والمعرفة هو لصالح الانسان، وبخاصة بعد عصر قنبلة هيروشيما».

ومهما يكن من أمر فإن سيطرة الحداثة على العمارة والفن بدءاً من العالم المتقدم ووصولاً إلى عالمنا العربي، تثير لدينا السؤال التالي، هل كانت هذه الحداثة من نسيج هذا العصر..؟

وبمعنى آخر هل كانت مرتبطة بهذا العصر المتغيّر باستمرار..؟ فإذا كان الجواب نعم، وهو الأرجح، فهل نعيش فعلاً العصر الأوروبي بانتصاراته وإخفاقاته؟!.

لاشك أنّ العصر الأوروبي ليس عصر العالم كله، وإن كان الزمن واحداً، لذلك فإن الحداثة الأوروبية، ليست هي حداثة العالم، على الرغم من انتقال ذيولها وتأثيراتها إلى الشرق وإلى الثقافة العربية بخاصة، فليست الحداثة الغربية مرحلة من مراحل تطور الإبداع العربي، وماوردنا من أمثلة عنها كان شاهداً على عصر الغرب القلق، وعلى تقدّمه الصاعد الهابط الذي أصبح علّة السقوط الحضاري في الغرب، ونحن لانشعر

بالإلفة مع هذه الحداثة التي بقيت على سطح إبداعاتنا، ونحاول أن نقاومها، ونشارك الغرب بالهجوم على حصونها وكشف انحرافاتها، لكي نبني- نحن وهم- عصراً من الإبداع ينسجم مع عصر كلّ منا، ويبدو ذلك جلياً في محاولة التأهيل الإبداعي في الشرق ومحاولة تجاوز الحداثة في الغرب.

لقد كانت الحداثة في الغرب مرحلة إبداعية استمرت سبعين سنة، وبعد عهد الانتصار على المألوف، أصبحت تسير قدماً في متاهات الغموض والعبث والتجريد والعدميّة، وفي كل يوم يولد في الغرب فنان جديد، يستعين بالنفايات والمحروقات وكسر الحجارة والحديد لإقامة فن حديث، أو يستعين بالقوالب الثابتة لإقامة معلّبات إسمنتية تافهة صماء لعلّه يعبرّ بذلك عن حالة الضياع التي يعيشها إنسان هيروشيما الانفجاري الذري.

ولكن العالم في النظام الجديد يشهد تحوّلاً لانظير له بسرعته، وهدفه البحث عن الذات، بدءاً من الاهتمام بالحفريات الأثرية لاكتشاف آيات حضارية لعرضها في آلاف المتاحف القديمة التي يتزايد عددها بوفرة هائلة، معبراً عن هويته وذاتيته الثقافية من خلال تراثه وصولاً إلى عملية الاستقلال القومي عن التجمعات والوحدات الإكراهية التي كانت تديرها الأيديولوجيّات العصبيّة، وسارت أكثر الأمم نحو تكوين سياسي قومي يقوم على الانفصال أو على التوحيد.

إنّ هذا التكوين العتيد سيفسح المجال إلى ازدهار التيارات الثقافية القومية ورفض التيّارات الوافدة، وهو عين ما تسعى إليه أوروبا الغربية الموحدة قريبا، والتي تنادي بنزعة إبداعية قومية حملت اسم (مابعد الحداثة).

Post - Modernism

على أنّ الدعوة إلى (مابعد الحداثة) في الغرب لم يقرّرها المعماريون والفنانون وحدهم، بل شارك في ذلك الفلاسفة والنقّاد وسواد المتذوقين الذين أعلنوا رفضهم الاتجاه نحو المجرّد، وأخذوا يطالبون الفنّانين بالرجوع الى عالمهم، عالم التاريخ والطبيعة والإنسان، هكذا ابتدأ الكتّاب يتحدّثون عن (مابعد الحداثة)، ولكنهم يعترفون- حتى الآن- أنّ هذا الاتجاه لم يأخذ بعد كامل عمقه النظري، ويكتفون بالدعوة على الأقل، إلى مرحلة، تكمّل (الدور الديالكتيكي) لمدارس العمارة والفن يأتي بعد الحداثة، التي عاصرت ظروفاً سياسية واقتصادية تغيرّت اليوم بشكل مفاجيء وحاسم، بعد أنْ استنفدت طاقتها عندما وصلت الى المجرّد.

ويقف دهاقنة الحداثة ضد هذا التيار الجديد، ويرون فيه عودة الى الماضي، وهو يفتقر إلى الطموح والإبداع، كما فعل دي كيريكو فيما سُمّي بالميتافيزيائية الحديثة، الذي عاد بمواضيعه إلى عالم الماضي، إن هذا لايبشرّ بعالم المستقبل الحي أو الذي سوف يولد، ولكنه يكرّس عالماً ساكناً جامداً لامكان له في الحاضر.

ويرون أنّ فيلسوف مابعد الحداثة، إذا كان يراهن على إفلاس الحداثة فهو متّهم بعدم مقدرته على إغناء الطريقة التي تصوّر الواقع، بكثير من الحرية والطموح والتفاؤل.

ويدافع أصحاب دعوة (مابعد الحداثة) عن موقفهم ويقولون: إنّ الماضي هو تراكم الأشياء، والأحداث، وهو أشبه (بسوبر ماركت) نستطيع أن نجمع منه بحرية كل مانراه أكثر تعبيراً عن التاريخ، وفي شواهد الماضي مالاحصر له من الأصناف الإبداعية، والمبدع معماراً أو فناناً حرٌ بالتقاط صنف منها قادر أن يعيش في المستقبل، وهكذا فإن التعددية Pluralism ، هي ميزة هذا الاتجاه ويرى تشارلز جينكز إن مابعد الحداثة تعني التعددية، وهي سمة العصر وليس شيئاً آخر، إنّ عصر المعلوماتية هو عصر التعدديّة، وليس من ثقافة مسيطرة، بل هناك عدد من الثقافات المستقلة.

لقد مرّت الحداثة في آخر مراحلها بمحاولات تصحيح طائشة فاستعاضت عن الأشياء بالنفايات لتشكيل فن أُطلق عليه اسم الفن الشعبي Pop. ART

وأخذت العمارة شكل المصنع والآلة كما في مركز بومبيدو في باريس، ثم هجر هذا الفنّان حدسه الجمالي، لكي يخضع لسيطرة التكنولوجيا، فكان الفن السينمائي أو البصري art . وهكذا أصبح الإبداع الحديث انعكاساً للعصر الصناعي التقني، فلم يعد الفن فناً بل صنعة، وابتعد نهائياً عن الطبيعة. ووصل التقدّم إلى أوجه حتى وصل الى نقطة البداية بل إلى نقطة العدم. وكان لابد من تحريره من ربقة التقنية والآلية، وإعادته إلى الطبيعة والتاريخ عن طريق تجاوز الحداثة إلى مابعدها. ومنظرو مابعد الحداثة من أمثال جينكز Ch. Jencks ودافيد كولب D. Kolb وكوك Ph. Cooke يحاولون الإجهاز نهائيا على الحداثة المعمارية.

إنّ مجموعة هائلة من المفردات المعمارية التاريخية منثورة أمام المعمار، وباستطاعته أن يستفيد من هذه المفردات في عمارته، فيختار مايراه مناسبا للوظيفة الجديدة ولمتطلبات العصر، وله الحق في تحوير

وتأويل هذه المفردات تبعاً للمواد الإنشائية والتقنيات والآليات والخدمات المستحدثة.

ولكن هدف المعمار أن يبقى منتمياً للتاريخ، وليس للمبتكرات والصرعات والتجريدات. ومايتهم به أصحاب نزعة مابعد الحداثة أيضاً، هو أن أساليبهم لاتخلو من القاعدية على حساب الإبداع.

إنّ القواعد والنظم الكلاسيّة (الإغريقية الرومانية) مازالت مسيطرة على جميع النزعات الإصلاحية التي مرّت في أوروبا، فلقد استفاد عصر النهضة من الكلاسيّة، ثم قام نابليون بونابرت بإعادتها على شكل محدث، وهاهو الغرب اليوم في عصر مرحلة مابعد الحداثة ينقب في أبعاد الكلاسيّة لاستخلاص طوق النجاة من الحداثة.

والجواب على ذلك أنّ عمارة عصر النهضة كانت في الواقع ثورة على العمارة المسيحية البيزنطية والرومية والغوطية، ودعوة للرجوع الى التراث ولانشك أنّ هذه العودة لم تكن لنسخ هذا التراث وتكراره، فأبنية عصر النهضة من الدوكاله في البندقية إلى قصر أوفيس في فلورنسا إلى كنيسة القديس بطرس في روما لم تكن عمارة وثنية كلاسيّة وإن ظلّت محافظة على روح التراث الكلاسي، وكان نظام عمارة الكلاسيّة المحدثة الشبيه بما يسمى اليوم بنظام مابعد الحداثة.

إنّ تجربة عصر النهضة وتجربة الكلاسيّة المحدثة تؤكد أنّ العودة إلى التراث لاتعني العودة إلى الماضي، بل العودة إلى الجذور ولكن لابد من القول، إنّ تاريخ أوروبا أو تاريخ أمريكا كليهما لايرقى إلى قدم التاريخ العربي، ثم إنّ التراث القديم المتمثل بالعمارة الكلاسيّة لم يكن فن كل أوروبا، لقد كان مصدره أثينا أو روما، ثم انتشر حيثما انتشرت السلطتان، وعندما تغيّرت هذه السلطة أو تلك، وتغيّرت الأنظمة السياسية والعقائد، أصبحت هذه العمارة هي عمارة الجذور وحدها.

وهكذا فإن الحنين إلى التراث ليس طارئاً وغريباً في تاريخ العمارة الغربية وهاهم منظرو عمارة مابعد الحداثة يتحدّثون اليوم بإعجاب خارق عن عمارة فرساي للمعمار لوفو Le veux وعن عمارة الانفاليد التي اشترك فيها بروان Bruand ومانسار Mansard، وعن بناء الصوربون للمعمار لوميرسيه Le Mercier وعمارة البانتيون لسوفلو Souflo، بل تعلّقت أبصارهم بالأبنية السكنية المتلاحمة المتكاملة ذات الجملونات وقلّدوها في بناء

مركز الفنون الجميلة في جامعة أريزونا للمعمار بريدوك A. Bredock

إنّ الحديث عن الأصالة في العمارة والفن سابق ولاشك للحديث عن (مابعد الحداثة) فلقد انتبه المفكرون والمبدعون العرب إلى خطورة النقل عن الآخرين وتقليدهم في أساليب عمارتهم وفنهم، هذا التقليد الذي أصبح خطراً على الشخصية القومية، عدا أنّ هذا النقل يحرمنا من مبادرة الإبداع والخلق، ويجعلنا تابعين للتيّارات التي نشأت نتيجة ظروف غريبة عنا.

واذا كانت عودة الغرب إلى الجذور محفوفة بالفقر بسبب قصر عمر الحضارة هناك، فإن التراث المعماري العربي يمتد منذ بداية التاريخ في مصر القديمة وبلاد الرافدين إلى تراث اليمن والحيرة ومدافن صالح ثم إلى عمارة العهود الإسلامية بالعهد الاموي والعباسي والسلجوقي والفاطمي والأندلسي والمرابطي والموحدي والمملوكي. هذا إذا لم نذكر التراث الإسلامي خارج المناطق العربية، وفيه خيارات ثرّة تساعد المعماريين في تركيا وإيران على تكوين عمارة أصيلة.

ولكن النقد الذي يوجّه إلى «مابعد الحداثة» مازال موجهاً لحركة التأصيل المعماري من أنها عودة إلى الماضي، وهذا يدل على سوء فهم معنى الأصالة.

ونحن نرى أن الأصالة هي الفعالية الابداعية القادمة من التاريخ والمفعمة بروح التراث، وهي لاتنفصل عن الإبداع، ففي كل مرة يتحقق فيها الإبداع ينقلب تراثاً يبحث عن الاستمرارية في إبداع جديد، إنّ قانون الاستمرارية هو قانون التقدّم، وهو تطور عضوي منسجم مع مفهوم الحياة.

فالأصالة ليست عملية انتقائية من الماضي، بل هي إبداع مستمد من روح التراث وليست هي نقل للتراث.

ومع أن دعوة مابعد الحداثة تتلاقى مع دعوة الأصالة دون أن يكون الواحد منهما مأخوذاً أو مستمداً من الآخر، بل إنّ منطلقات الدعوتين كلتيهما مختلفة وإن كانت إنجازات كل من الاتجاهين تسير باتجاه واحد، نحو الجذور والأصول والهوية.

لقد قام عدد من المعماريين والمعلمين ببناء عمارات جديدة ذات جذور عربية، نذكر منها بناء البريد في الجزائر وضريح محمد الخامس في الرباط وقصر العدل في دمشق، ولقد نقل المعماريون العناصر الزخرفية والخامات القديمة نقلاً أميناً في هذه العمارات وأمثالها، ولكنهم لم يرتبطوا بالعصر إلاّ بما يتعلق بالوظيفة الجديدة،

تماماً كما فعل المعماريون بعد الثورة الفرنسية عندما قدموا منشآت الكلاسيّة المحدثة. لذلك أطلقنا على العمارة العربية المنشودة اسم العمارة العربية المحدثة، وأردنا من ذلك أن عملية التحديث والتأصيل كلاهما تشكلان لحمة عضوية في هذه العمارة.

أمّا عمارات مابعد الحداثة ومثالها في هولندا بنك ن. م. ب للمعمار البرت وفي طوكيو بناية باماواتو الدولية للمعمار هيروشي هيرا، وفي فرانكفورت البنك المركزي للمعمار أجم. فإنها تعتمد على دراسات جمالية وتنظير معماري لم يسبق له مثيل في تاريخ العمارة، لأنه يرافق نشوء عمارة مابعد الحداثة ويحدد مسارها ويصلح أخطاءها وانحرافاتها، وتبقى مؤلفات تشارلز جينكز Jencks وبخاصة كتابه (لغة عمارة مابعد الحداثة) الذي طبع للمرة السابعة حتى اليوم، والكتاب الأكثر مرجعية لمفهوم مابعد الحداثة.

وبالمقابل فإن مصادر موضوع الأصالة في العمارة العربية مازالت نادرة جدا موزعة بين مقالات وآراء وتصريحات كتبها معماريون من أمثال حسن فتحي وصالح لمعي وبديع العابد وقحطان المدفعي وآخرون، إضافة إلى ماأوردناه في كتبنا وبخاصة كتاب (العمارة العربية الجمالية، الوحدة، التنوع، الصادر عن المجلس القومي للثقافة العربية- روما ١٩٩٢).

إنّ فلسفة العمارة العربية واحدة تراكمت عناصرها عبر التاريخ والعهود والطرز، والعمارة الأصيلة هي سمة ثابتة لجميع مراحل العمارة العربية، كما أنّ العمارة المستقبلية هي استمرار تاريخي للعمارة العربية، وجميع مظاهر التقليد في البلاد العربية التي أدّت إلى ظهور عمارات كلاسيّة محدثة أوباروكية أو حديثة هي انعكاس للظروف الاستعمارية ولاتتصف بأي أصالة، ومازالت غريبة هجينة تطفو على هوامش التاريخ المعماري.

على أنّ التقارب بين العمارة الأصيلة وعمارة مابعد الحداثة أدى اليوم إلى ظهور عمارة عربية تنشد الأصالة من خلال مفاهيم ونظريات مابعد الحداثة، ويمكننا هنا أن نسوق أمثلة معمارية ظهرت مؤخراً منها في دمشق، بناء قصر الشعب وبناء المركز الثقافي الفرنسي وبناء المعهد العالي للموسيقا والمسرح، إنّ هذه الأبنية العامة جديرة بالدراسة والتحليل على ضوء معطيات مفهوم الأصالة وعلى ضوء نظريات مابعد الحداثة، للتمييز بين الاتجاهين الكامنين في هذه المنشآت أو لاستخلاص المزيد من نظريات الأصالة في عمارة اليوم والغد على الأرض العربية. ■

# مفهوم الشعر بين جيلين

بقلم: الدكتور وليد قصّاب
كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي

كثر نقد المحدثين لتعريف العرب الشعر بأنه «الكلام الموزون المقفّى الدالّ على معنى» إذ فهموا من ذلك أن القدماء قصروا الشعر على الوزن والقافية، وأنهم لم يحفلوا بغيرهما من عناصره: كالخيال، والعاطفة، والتشكيل اللغوي، وغير ذلك. وفي حمل الكلام على هذا المحمل قصور عجيب في فهم العبارة؛ فهي لاتعني - لمن لديه معرفة بأسلوب العرب - القصر أو التخصيص؛ فللقصر أساليب معروفة. وما التوقف - في هذا التعريف الذي يكثر إيراده عند هذه العناصر (الوزن، القافية، المعنى) - إلا من قبيل الإشعار بأهميتها، ومن باب ذكر الخاص لمكانته، وتعريف الشيء بأبرز مايتميز به؛ لأن من الصعب - بل من المستحيل أحيانا - إيجاد تعريف جامع مانع للأشياء مهما كانت بسيطة، فما بالك بفن غني، وتِقانة رفيعة كالشعر!

وحسبك أن تتأمل معي في بعض من تعريفات الشعر التي أُثرت عن نقاد كبار غربيين لترى أن أياً منها لايضع اليد على عناصر المعرَّف كلها، ولكنه يتوقف عند مايقدِّر أنه الأبرز فيه.

يقول هوراس: «الشعر كالرسم» ويقول سيمونيد: «الرسم شعر صامت، والشعر صورة ناطقة» ويقول ورد ورث: «الشعر فيض تلقائي لعواطف قوية»[1] ويعرّفه ماثيو أرنولد بأنه «نقد الحياة»[2] ويعرّفه رسكن قائلاً: «الشعر هو اقتراح الخيال البواعث النبيلة للعواطف النبيلة»[3].

وعلى أن في تراثنا الأدبي تعريفات كثيرة للشعر، تحدّث بعضها عن التخييل، وتحدّث بعضها عن الصور الفنية، وأشار بعضها صراحة إلى أن الشعر ليس مقصوراً على الوزن والقافية. يقول الجاحظ: «إنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير»[٤]. وقال ابن سينا: «الشعر كلام مخيّل، مؤلف من أقوال موزونة متساوية، وعند العرب مقفاة»[٥]. وقال يحيى بن علي ابن المنجم: «ليس كل من عقد وزناً بقافية فقد قال شعراً... الشعر أبعد من ذلك مراماً، وأعزّ انتظاماً»[٦]

وقال ابن رشيق: «قال غير واحد من العلماء: «الشعر مااستعمل على المثل السائر، والاستعارة الرائعة، والتشبيه الواقع، وماسوى ذلك فإنما لقائله فضل الوزن»[٧] كما نقل عن العلماء قولهم عن الشعر: إنه لاينبغي أن يكون خالياً من هذه الحلى، يقصدون ضروب الصنعة، كالتمثيل، والتشبيه، والاستعارة. ووصفوا الشاعر الذي يخلو شعره من هذه الوجوه بأنه يخلي، واعتبروا الإخلاء عيباً في الشعر[٨].

وتسمع منذ العصر الجاهلي أن عبد الرحمن أتى أباه حسان بن ثابت يشكو إليه لسعة الزنبور قائلاً: «لسعني طائر كأنه ملتف في بُرْدَيْ حبرَة» فقال له حسان: «قلت والله الشعر»[٩]. وتسمع في العصر الأموي أن عبد الملك بن مروان قال للراعي، وقد أنشده:

أخليفة الرحمن إنّا معشر
حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب ترى لله في أموالنا
حقّ الزكاة منزلاً تنزيلا

«ليس هذا شعراً. هذا شرح إسلام، وقراءة آية»[١٠].

ففي هذه الأقوال وكثير غيرها مما لايتّسع المقام لإيراده مايشعر بشكل واضح لايقبل اللبس أن العرب فطنت -على مر العصور- إلى أن الشعر ليس كلاماً موزوناً فحسب، بل له عناصر كثيرة: كالصورة والانفعال، والتشكيل اللغوي الباهر، وجماليات خاصة تميّزه من الكلام العادي، وقد سخر حازم القرطاجني طويلاً ممن ظن أن «الشعرية، في الشعر إنما هي في نظم أيّ لفظ اتفق كيف اتفق لفظه، وتضمينه أيّ غرض اتفق على أيّ صنعة اتفق، لايضير عنده في ذلك قانون ولارسم موضوع»[١١]..

وأشار ابن رشيق في تعريف الشاعر إلى رهافة حسّه، ونفاذ بصيرته، وتميّز أداته الشعري، فقال: «وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لايشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولااختراعه، أو استطراف لفظ وابتداعه... كان اسم الشاعر عليه مجازاً لاحقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير..»[١٢]. وحسبك هذا المقدار من أقوال نقّاد العرب حتى تعلم علماً لايختلج فيه الشك أي اندفاع في الرأي، وأي قصور في الاستقصاء، أن تتّهم التراث العربي القديم أنه قصرّ في تعريف الشعر وفهمه، وأنه غفل عن كل شيء فيه إلا الوزن، وأن تذهب مذهب يوسف الخال وغيره من المحدثين فتقول: «كان المفهوم القديم للشعر يتمثّل في التعريف المأثور: الشعر هو الكلام المقفّى الموزون». ثم أضاف إليه «العصريون» قول الزهاوي:

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه
فليس خليقاً أن يقال له شعر

أو قول شوقي شارحاً سبب هذا «الهزّ»:
والشعر إن لم يكن ذكرى وعاطفة
أو حكمة فهو تقطيع وأوزان

بهذا كان الشعر –حتى منتصف القرن العشرين– صناعة تتوخى «هزّ» الوجدان والعقل عن طريق الوزن والقافية من جهة، والذكرى والعاطفة والحكمة من جهة أخرى. وهي نظرة تجعل للشعر مهمة تعليمية، أو إخبارية، أو وصفية، كالنثر سواء بسواء[١٣].

**الشعر لايكون إلا بالوزن:**

وإذا كانت العرب قد فطنت إلى أن الشعر ليس هو الكلام الموزون فحسب، فإنها– في الوقت ذاته– لاتسمي أي كلام غير موزون شعراً. إن الوزن أبرز مايميز الشعر من النثر. وكلّ كلام موزون ذي معنى هو شعر كما قال قدامة بن جعفر، ولكن السؤال الأهم: ماقيمة هذا الشعر، ومامستواه الفنّي، إذا لم يستوف العناصر الأخرى التي أشار إليها النقّاد العَرب الذين نقلنا أقوالاً كثيرة لهم؟ إنه شعر رديء، وقد أطلقوا عليه أحياناً اسم «النظم» وقول القائل منهم: «ليس كل موزون شعراً»[١٤] إنما يقصد به تحديد درجة «الشعرية» أو «الشاعرية» في الكلام، ولايعني نفي الموزون من عالم الشعر، فالكلام عند العرب: شعر ونثر، والواو تعني المغايرة، والوزن هو المعلم الرئيس الفارق بينهما، وإذا لم يستوف الكلام إلا خصائص الوزن كان شعراً هابط المستوى، جاف الشاعرية، وقد يصلح أن نسميه نظماً، وقد عبرّ أبو العلاء المعري عن هذا المفهوم؛ إذ فرّق –في الشعر– بين ماهو نظم فحسب، لأنه موزون، وبين ماهو شعر حقيق بهذا الاسم لتقبل الغريزة له[١٥]. وشايع المظفّر العلوي أبا العلاء في رأيه، ففرق بين الشعر والنظم، مستشهداً بموقف المعرّي الذي كان يسمّي بعض أنواع الشعر المتهافت نظما[١٦]. وسخر حازم القرطاجني بشدة من هؤلاء الأخسّاء الذين اتخذوا «الأشباح الشعرية» وسيلة لاستدرارالأعطيات من السوقة، دون أن يعرفوا حقيقة الشعر، ظانّين أن كل ماركب على وزن وقافية يعدّ شعراً. وضاعت التفرقة بين الشعر الحق وهذا «الشبح» الذي يرسم صورة الشعر دون حقيقته[١٧].

وأوضح ابن سينا، الذي لم يغفل عن أهمية التخييل في الشعر، أن هذه الخاصّة قد تكون مشتركة بينه وبين النثر، بل قد ينفرد بها النثر ويفتقدها الشعر، ولذلك لايصلح أن تكون فيصلاً بينهما، بل الفيصل هو الوزن، يقول: «وقد تكون أقاويل منثورة مخيلة، وقد تكون أوزان غير مخيلة، لأنها ساذجة بلا قول، وإنما يوصف الشعر بأن يجتمع فيه القول المخيّل والوزن..». وأوضح الفارابي أن الشعر إذا خلا من الوزن بطل أن يكون شعراً، والأصحّ أن يسمّى عند ذلك «قولاً شعرياً»[١٨]

ومضى الشعراء العرب يجددون في أوزان الشعر كما كانوا يجددون في كل شيء فيه. شاعت في أشعار الإسلاميين –ولاسيما عند

شعراء الغزل- الأوزان القصيرة التي لم تكن ذائعة عند الجاهليين. وشهد العصر الأموي نهوضاً بفن الغناء، حمل معه تطويراً واسعاً في الموسيقا الإيقاعية للشعر العربي، سواء في الأوزان أو في الصياغة اللغوية، واشتهر الوليد بن يزيد الذي عكف على هذه الصناعة، فوضع أصواتاً مشهورة، واستحدث شعراً على وزن المجتث، ونفذ إلى قالب المزدوجة ذات الشطر الواحد والقافية المنوعة في كل شطرين. وبلغ اهتمام القوم بالغناء في العصر العباسي أوجه، فقام كتاب الأغاني الذائع الصيت على أساس الأصوات المائة المختارة، وأضيف إليها الكثير من الأصوات التي غنّيت في هذا العصر. وكانت تقاس جميعها بمقاييس علم العروض، وتقوم على معايير وقواعد موسيقية معروفة، وعندما ابتدعت الموشّحات في الأندلس قام أغلبها على الأوزان المهملة، وهي مستنبطة من الدوائر العروضية التي اكتشفها الخليل، ولكن العرب القدماء لم يستعملوها، وقد حاول الشاعر المصري ابن سناء الملك المتوفى سنة (٦٠٨هـ) في كتابه المعروف «دار الطراز» تقنين طرائق نظم الموشّحة، وصورها المختلفة، وعروضها وموسيقاها. وكذا الحال في كثير من الفنون الشعبية الشعرية التي عرفت، كالزجل، والمواليا، والدوبيت وغيرها، إذ قامت على الموسيقا نفسها التي كفلها العروض العربي مع تحويرات قليلة أو كثيرة اقتضتها طبيعة كل نوع.

وبقي الوزن - على تنوع في صوره وأشكاله خلال هذه الرحلة الطويلة- المَعْلم الفارق بين الشعر والنثر، وظلت ملامح الشعر وقسمات وجهه متميّزة لاتخطئها العين. والحق أن كثيراً من الأشكال الموسيقية التي أشرنا إلى بعض منها ممّا استُحدث في الشعر العربي لم تطرب لها الأذن العربية كثيراً، وعدّت في نظر القوم فنوناً أدنى مرتبة من فنون الشعر التقليدي، ومن ثمة لم تستطع أن تبسط سلطاناً عريضاً، وانقرض بعضها من غير أن يخلّف أثراً يذكر، وبقي العروض الخليلي راسخاً شامخاً.

ونصل إلى العصر الحديث، فتقوى موجات التجديد ممتزجة بالتغريب -في ظل الانبهار بالآخر، لأسباب حضارية وسياسية واجتماعية ونفسية، ليس المقام هنا مقام خوض في مثلها - وتولد في خمسينات هذا القرن قصيدة «الشعر الحر». وشعر «التفعيلة» نمطاً جديداً، متأثرة -في ولادتها- بعناصر تراثية يسيرة، وعناصر غربية غالبة. وتبدأ الشكاوى من عروض الخليل، والأوزان التقليدية المتوارثة، وتبدأ تسمع -لأول مرة في تاريخ الشعر العربي- من يقول لك: إنها عاجزة عن الوفاء بأسلوب العصر، وإنها قيد ثقيل يعوق تحليق الشاعر واندفاعه، وإن المضامين الجديدة تحتاج إلى أشكال جديدة.

وتفشو قصيدة الشعر الحر، وتصبح جزءاً من قضية (أيديولوجية) أعمق وأبعد، وتتبنّاها منابر إعلامية ثقافية كثيرة، فتروج لها، وتحتفي بها، وتسبغ عليها هالة من التبجيل، وتوشك أن تعدّ الشعر العربي الحقيقي بدأ بها، وتستهين في مقابل ذلك بكل شعر يحمل أثارة من التراث، وهي لاتكتفي بها ضرباً جديداً من الشعر يمكن

أن يعيش إلى جانب الشكل القديم، وأن يتنافسا معاً منافسة شريفة، ينفي فيها الصالحُ الخبث، بل حكمت على هذا القديم بالموت، وراحت تعدّ الكتابة فيه رجعة في الفكر والذوق.

وركب الموجة الجديدة، وكان وراء الاحتفاء بها، ثلاثة من الفرقاء:

■ فريق من الشعراء والنقّاد كانوا ذوي حمية وغيرة على الشعر العربي، وهم حراص على التجديد، فالتجديد يعني تدفق ماء الحياة في العروق، وهؤلاء كانوا يدركون مايصنعون، كانوا متضلّعين من تراث أمتهم، محترمين له، فجاء تجديدهم أصيلاً عميقاً، وقدّموا في هذا الشعر الجديد نماذج رفيعة مقبولة.

■ فريق من الحاقدين الموتورين، لايدعون فرصة تسنح إلا اهتبلوها في تسفيه تراث هذه الأمة، والاستهانة به، والإزراء عليه.

■ فريق من الضعفاء المتشاعرين، الذين استسهلوا هذه الموجة الجديدة، وتوهموا أنها تحرر الشاعر من القيود، ووجد هؤلاء من يصانعهم ويعملقهم، ويشدّ على أيديهم مرحّباً، مسمّياً كل مايصدر عنهم من ترّهات ومخاريق شعراً.

وكان من سوء طالع الشعر الحديث أن غلب على ساحته الفريقان الأخيران، فتميعت المفاهيم، «وتسيّبت» المعايير، واضطربت ملامح الشعر ومعالمه، ومضت قسمات وجهه تضمر شيئاً فشيئاً حتى لم يعد يتميز من النثر. ونشأ فيه الخطأ، والاستهانة بالوزن والإيقاع، وقد توقف دارس أكاديمي[19] عند نماذج كثيرة من الشعر الحر، ثم تلبّث طويلاً عند ثلاثة من أبرز وأشهر رادة هذه الموجة، وهم صلاح عبد الصبور، وبدر شاكر السيّاب، وعبد الوهاب البياتي، فاستعرض دواوينهم قصيدة قصيدة، فلاحظ تفشيّ الخطأ في استعمال الوزن، وأنه قلّ أن تخلو قصيدة من كسر، أو تجوز بزيادة أو نقصان يشوشان النغم، أو تشكيل التفعيلات بطريقة غير منتظمة، أو الترخّص في استعمالها، من حيث عددها، ومن حيث زحافاتها وعللها، ومن حيث المزج بين البحور، واستباحة العروض بشكل لاتقبله الآذان، ولايسيغه الذوق. وخلص الباحث ـ وهو من أنصار الشعر الحر، المتقبلين له ـ إلى أن هنالك حالة من الفوضى الفاحشة تسود الشعر الحديث، زيادة على انحسار كثير من الأوزان والنغمات التي كان يعرفها الشعر العربي (السلفي).

إن الشعر الحديث يقوم اليوم -على أيدي من يعرفون الوزن ويلتزمونه- على تفعيلات معينة، لاتكاد تجاوز أو تبلغ أصابع اليد الواحدة، وإن عروض الخليل الذي يتمتع برحابة موسيقية هائلة، تتمثّل في أعداد كثيرة من الأنغام الوزنية الناتجة عما يصيب التفعيلات من زحافات وعلل، ومن استعمال للبحور على أشكال مختلفة، كالتام، والمجزوء، والمنهوك والمشطور، وماهنالك من أوزان مهملة يتيحها نظام الدوائر العروضية؛ إن نظام الموسيقا الرحب الغني هذا قد غدا اليوم مسيخاً، إن عباقرة الشعر الحديث يصبونه في عدد من التفعيلات النمطيّة المتكررة.

لاحظ الدكتور إحسان عبّاس ـ في كتابه عن عبد الوهاب البياتي ـ[20] أن في ديوان

«أباريق مهشمة» الذي عدة قصائده إحدى وخمسون ثمانياً وعشرين قصيدة تستمدّ نفحاتها من بحر الكامل. وترى نازك الملائكة ــ إحدى أوائل رادة الشعر الحر- أن الرتابة التي يلصقها قوم بالأوزان الخليلية، هي مُتّلبة بالشعر الحر أولى. تقول: «يقتصر الشعر الحر بالضرورة على ثمانية بحور من بحور الشعر العربي. وفي هذا غبن يضيق مجال إبداعه. يرتكز أغلب الشعر الحر إلى تفعيلة واحدة، وذلك بسبب رتابة مملّة. خاصة حين يريد الشاعر أن يطيل قصيدته. وعندي أن الشعر الحر لايصلح للملاحم قط. لأن مثل تلك القصائد الطويلة ينبغي أن ترتكز إلى تنويع دائم، لا في طول الأبيات العددي فحسب، وإنما في التفعيلات نفسها..»[٢١].

وعلى أن هذا الشعر الحر ـ الذي يلتزم التفعيلة وضرباً من القافية المتنوعة المتلونة ـ نمط مقبول في رأينا، ولاسيما حينما يتناصح الغُيرُ من الشعراء والنقاد على تنقيته من الشوائب التي عكّرت وجهه. وهو ـ عندنا ـ لايرقى في نظامه الموسيقي إلى مستوى الشعر التراثي الخليلي، ولكننا نقبل به موجة جديدة، وصفحة طريفة في مسيرة شعرنا العربي باستمرار، ونحترم ذوق الأذن العربية إذا ساغته، وتفسح له المجال ليعيش إلى جانب المتوارث من شعرنا، يتزاحمان، ويستبقان معاً في حلبة الفن فرسيْ رهان، ليبقى الصالح، ويذهب الزبد جفاء.

**تمييع الحداثة لمفهوم الشعر:**

وعلى أن الحداثة النافرة من كل قيد، تأبى أن تظل للشعر ملامح تميّزه من غيره من ألوان الكتابة الأخرى، إنها مغرمة بخلط الأوراق، ونسف المعايير، وتمييع المفاهيم. وإنك إن قبلت على اقتناع، أو مضض -هذا الشعر الجديد، وأردت أن تحاكم ماتقرؤه في هذه الأيام إليه، وإذا راحت واحدة- مثل نازك الملائكة. تحاول أن تضع يديك على بعض المعايير التي تقيس بها هذا الشعر، لتقدم -وهي من أسبق رواده إن لم تكن أسبقهم- خدمة إليه قبل أي شيء، وهي أن تعصمه من الفوضى، ومن عبث العابثين؛ حمل عليها أرباب الحداثة حملة شعواء، فسخر منها يوسف الخال وغيره سخرية مرة، واتّهمت هذه الشاعرة التي كانت إلى أمس قريب رائدة من رواد التجديد بالرجعية والتحجّر، والنمطيّة والجمود، وأنها مرتدّة، خانت حركة الشعر الجديد التي تدّعي اكتشافها، وأنها سلفية ملتزمة، وأن عملها هذا خنق لحركة الشعر الحر تحت ضغط أنامل الخليل الجديد الناعمة...[٢٢] وغير ذلك من أنماط اتهامات ـ غير نقدية ولا فنيّة ـ مما يشبه أن يعدّ لوناً من إرهاب فكري عجيب.

إن الحداثة ــ على أيدي أبرز أعلامها، الذين توشك أن تكون آراؤهم كالوحي المنزل عند الأنصار ـ تحاول دائما ـ نسف المعايير والقواعد، فيقول من يشاء مايشاء ويسميه كما يشاء، فأدونيس يتحدث «عن تجاوز الأنواع الأدبية: النثر، الشعر، القصة، المسرحية.. إلخ، وصهرها كلها في نوع واحد هو الكتابة»[٢٣] ويلخص القيم الشعرية القديمة التي تحوّلت أو تغيّرت، والتي تجاوزها الشعر العربي الجديد أو

يتجاوزها، ومن ذلك «الشكل الثابت، للشعر العربي القديم شكل بنائي ثابت. الشاعر العربي الجديد يتّجه نحو الشكل المتحرك. قد يصبح لكل قصيدة جديدة شكلها الخاص. دون أن تتحدد بوزن أو نثر، لم يعد يؤمن بشكل مفروض سلفاً، مطلق لايتغير..»(٢٤) ومن ذلك أيضاً مايتعلق بمعنى الشعر؛ إذ «لم يعد معناه يقوم على الشكل. بمعنى أن النثر اليوم يمكن — في بعض الحالات – أن يعتبر شعراً..»(٢٥)

وهكذا تضيع الملامح بين الشعر وغيره من الفنون الأدبية، ويغدو ضرباً من الكتابة ليست له معالم تميّزه من غيره، ولم تعد مسألة الوزن – على أيّ صورة من الصور – أمراً ذا بال، أو معياراً من معايير قياس الكلام به. يقول أدونيس في العدد الرابع من مجلة الشعر مؤكداً على أن مسألة الشعر – القصيدة، ليست مسألة القصيدة وزناً كانت أو نثراً «بل مسألة الشعر الذي نمارسه كوسيلة للمعرفة والخلق، فلم يعد هدف الشاعر اليوم أن يحشد الكلمات المنتقاة، ويخلق أشكالاً جميلة لكي يقدم للناس لذّة جماليّة، ولا أن يشرح من جهة أخرى أفكاراً فلسفية أو أخلاقية. إن هدف الشاعر الجديد كامن في رؤياه، كشخص، في تجربته، في قصيدته التي هي غاية بحدّ ذاتها. فمعنى رسالة الشاعر هو المهم، لاأشكاله الجميلة، ولاوزنه التقليدي، أو الحرّ، أو نثره..»(٢٦)

أرأيت تمييعاً للشعر، ومحاولة لمسح كل مايمكن أن يدلك عليه أكثر من هذا؟ أواجد أنت في هذا الكلام الزئبقي الرجراج أكثر من حشد للكلام المنمّق وهو الشيء نفسه الذي يحذر منه هذا الناقد؟ وهل تقديم «رؤيا» معينة مقصور على الشعر وحده؟ إن هذا التمييع للمفاهيم والمعايير، والاجتهاد في هدمها من غير البحث عن البديل قد أصبح سمة كبرى من سمات الحداثة عند أبرز دعاتها. وهاهو ذا يوسف الخال يعزف نغمة سفح المعايير ورجرجتها، فيؤكد في افتتاحية العدد الثاني عشر من مجلة شعر أن مبدأ التحرر في صناعة الشعر هو هدفها، وأن جميع القوالب الفنية الموروثة المفروضة على الشاعر خارج موهبته الفردية وذوقه الشخصي. أي أن المفهوم السائد للشعر في تراثنا الأدبي، القائل بإخضاع العمل الشعري لوزن معين، ولبناء فني معين، لم يعد يتمشّى مع حاجة شاعر هذا العصر إلى التعبير الحرّ عن تجربته الكيانيّة ورؤياه المبدعة(٢٧).

وكأنما يحسّ الحداثيّون أنفسهم بضبابية هذه الآراء وغموضها ولامعقوليتها، فيتطوع أدونيس لحلّ اللّغز — ولكن أتراه فعل؟ – يقول في كتابه زمن الشعر: إن الشعر الجديد – باعتباره كشفاً ورؤيا — غامض، متردد، لامنطقي. ولهذا لابد له من العلوّ على الشروط الشكلية، لأنه بحاجة إلى مزيد من الحرية، مزيد من السرّ والنبوّة، فالشكل يمّحي أمام القصد أو الهدف.. ليس الشكل مجرد وزن، وإنما هو نوع من البناء. ولهذا يبقى ككل بناء قابلاً للتجدّد والتغيرّ. ولاتنبع الموسيقى في الشعر الجديد من تناغم بين أجزاء خارجية وأقيسة شكلية، بل تنبع من تناغم داخلي حركي... لن تسكن القصيدة الحديثة في أي شكل، وهي جاهدة أبداً في الهرب من كل أنواع الانحباس في أوزان أو إيقاعات محددة.. إن تحديد الشعر

بالوزن تحديد خارجيّ سطحي، قد يناقض الشعر، إنه تحديد للنّظم لا للشعر، فليس كل كلام موزون شعراً بالضرورة، وليس كل نثر خالياً -بالضرورة- من الشعر. إن قصيدة نثرية يمكن بالمقابل أن لاتكون شعراً.. لايجوز إذن أن يكون التمييز بين الشعر والنثر خاضعاً لمعياريّة الوزن والقافية، فمثل هذا التمييز كميّ لانوعيّ..»[٢٨] وإذا كان ناقدنا العربي القديم قد حسم هذه القضية -كما بيّنا بالنصوص السابقة- قبل أدونيس وغيره، فقال إن من الكلام الموزون مالايعدّ شعراً، وسمّاه نظماً، تمييزاً له كذلك من النثر، فإنه — في الوقت نفسه — لم يسمّ كلاماً غير موزون شعراً، ولم يقع في هذا التناقض العجيب الذي يقع فيه أدونيس وغيره من الحداثيين حين يقول: «إن قصيدة نثرية يمكن أن لاتكون شعراً» فلماذا سمّيت قصيدة إذن؟ وكيف يجتمع النقيضان ـ القصيدة والنثر، الشعر والنثر ـ في مصطلح واحد؟

وتقرأ في مجلة «أدب» شقيقة مجلة «شعر» في افتتاحية عددها الأول[٢٩] مايحمل هذا التمييع وهذا النسف لمفهوم الشعر، إذ يقول قائلهم: «الشعر، ليس نوعاً أدبياً، بل هو حالة فكرية وروحية تشمل -حين تتوسع- لا الشعر كفنّ أدبي فحسب، بل فنون التعبير وطرائق الحياة. الشعر لنا، تحرير.. وكم تزداد حاجة الشعر إلى الحرية في هذا المفترق من تاريخنا العربي المليء بالشواهد على الثورة.. لسنا طالبي حداثة، وإنما نحن حديثيون، لهذا لايمكننا التراجع أو التساهل أو المساومة. الغموض؟ فليكن، وليكن الهذيان والجنون..» أتراك أمسكت من هذه التعريفات الحداثية بشيء تدرك به كنه الشعر في عرف هؤلاء القوم أنفسهم، لا في عرف الآباء والأجداد الرجعيين، أم أنك قبضت على سراب، فَفَهِمْتَ أن الشعر لم يعد نوعاً أدبياً، بل هو رؤيا، وإذا وجدت هذا غامضاً فليكن، بل ليكن الهذيان والجنون، فالحداثة — عند قوم — هي حمّى الجري اللاهث وراء السراب، إنها الاختراق والانتهاك الدائمان للأعراف والمقاييس كلّها. يقول كمال أبو ديب: إن الشعر الحديث قد بدأت شخصية الوحدة الإيقاعية فيه بالالتباس، كما أصبح التشكيل الإيقاعي بأكمله احتمالياً. وإنه يمضي في انتهاك الوزن، والاستهانة به، بدءاً من اختراق بنية التفعيلة الواحدة، وانتهاء باختراق بنية البحر كلّه[٣٠]..

وقد سرت عدوى هذا التمييع لمفهوم الشعر إلى بعض شعراء الحداثة الذين هم ـ في الجانب الإبداعي على الأقل ـ أكثر اعتدالاً من غيرهم، فأحمد عبد المعطي حجازي مثلاً يورد رأي إليوت ـ رائد الحداثة في الشعر الغربي — في «أن النص إمّا أن يكون شعراً فيجمل أن يكون موزوناً، وإما أن يكون نثراً فلا ينبغي أن يسمّى شعراً» ثم يعقب عليه هذا التعقيب المذبذب الذي يغيّم المسألة، ويغرقها في بحر من العتمة، فيقول: «ومع ميلي لهذا الرأي، فأنا لا أقول إن الوزن شرط للقصيدة العربية الجديدة لامحيد عنه، لأني أرى في بعض ماقدم في قصيدة النثر عندنا مضموناً شعرياً من الصعب إنكاره، وإن كان قليلاً لايقاس عليه، وهامشياً لم ينجح بعد في تطويع اللغة حتى نتقبله كتيّار متّصل، وإنما أقول إن

القصيدة الجديدة لايضايرها الوزن، بل يفيدها، لأنه لايزال قادراً على أن يلعب دوراً مؤثراً في البناء الشعري، وفي الخروج باللغة عن طبيعتها التبليغيّة الحرفية إلى الطبيعة الرمزية التأويليّة..»[٣١].

وفي ظلّ كلام سائح كهذا ـ يسهم مع غيره من آراء الحداثيين التي عرضنا نماذج منها في هلهلة مفهوم الشعر، ونسف معاييره ـ ينبغي ألا يستغرب الحجازي هذه الفوضى التي فشت فاشيتها في ساحة الشعر عندما يقول: «إن صفة الشعر تلصق الآن جزافاً على أيّ كلام لاينتهي عند نهاية السطر. والحديث عن أخطاء في النحو والعروض أقصر من أن يصف الحقيقة. فالحدّ الأدنى من الشروط المطلوبة في الكتابة لكي تعتبر شعراً ـ أو حتى مجرّد لغة ـ غير متوفر في كثير مما ينشر في الصحف والمجلات، وحتى في الكتب والدواوين. والأمر لايقتصر على المدّعين وحدهم، فالموهوبون يشاركون بدورهم في هذه الفوضى..»[٣٢]. فكل نشاط يفتقد المعايير الضابطة لابدّ أن يتحول إلى فوضى، وهذا ماآلت إليه حال الشعر العربي في هذه الأيام. ■

**الحواشي:**

١ – فن الشعر، د. إحسان عباس: ٢٨
٢ – في النقد الحديث، د. نصرة عبد الرحمن: ٢٤
٣ – أصول النقد الأدبي، لأحمد الشايب: ١٨٥
٤ – الحيوان: ٣/١٣١
٥ – فن الشعر (من كتاب الشفا): ١٦١
٦ – الموشح، للمرزباني: ٥٤٧
٧ – العمدة: ١/١٢٢
٨ – العمدة: ١/٢٨٥
٩ – الكامل للمبرد: ١/١٦٤
١٠ – الموشح: ٢٤٩
١١ – منهاج البلغاء: ٢٧–٢٨
١٢ – العمدة: ١/١١٦
١٣ – الحداثة في الشعر: ١٣–١٤
١٤ – الوساطة للجرجاني: ٢٤
١٥ – رسالة الغفران: ٢٥١
١٦ – تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس: ٦١٠
١٧ – السابق: ٥٣٩
١٨ – السابق: ٢١٩
١٩ – الدكتور رجاء، في كتابه «التجديد الموسيقي في الشعر العربي»: ٢٤٩–٣١١
٢٠ – عبد الوهاب البياتي: ٢٨
٢١ – قضايا الشعر المعاصر: ٥٦
٢٢ – الحداثة في الشعر: ٣٢–٣٦
٢٣ – مقدمة للشعر العربي: ١١
٢٤ – السابق: ١٢٩
٢٥ – السابق: ١٣٠
٢٦ – مجلة شعر: ٨٢، ٨٣
٢٧ – مجلة شعر: ٥
٢٨ – زمن الشعر: ١٤–١٦
٢٩ – مجلة أدب (١٩٦٣) م٢، ص ٤، ٥، ٦
٣٠ – مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الثالث: ٥١٢٥٠
٣١ – من محاضرة في البحرين، نشرت في جريدة الخليج
٣٢ – السابق

# الجنس النحوي وأثره في تقويم العمل الفني

بقلم: الدكتور محيي الدين رمضان

جامعة اليرموك . إربد

**تتعدد الدراسات النقدية التي تتناول النص الأدبي، وهي في مستوياتها المتعددة تراوح بين الشكل والمضمون، المعنى والمبنى، قد تحاور الدراسات المضمون أو المعنى، فتقف على وعيه وجدله الخاص والعام، وأحياناً تحاور الشكل أو المبنى فتقف على المستويات الدلالية والصوتية.**

**على أنها في اتجاهيها لاتخرج عن ما استوت إليه نظرية «النظم» عند الجرجاني عبر خصوصية الموروث وأصالته.**

**و«الجنس النحوي» يتناول بالدراسة بعض جوانب هذا الموضوع.**

لامناص للدارس يعرض لنص بالتقويم، مهما كان مذهبه، وأيّاً كان اتجاهه، من البَدْء بعنصر اللغة التي يأتلف منها النص.

سواء أكانت الدراسة فنية أم علمية أم غير ذلك.

فالدارسون جميعاً ملزمون بهذا العنصر، يبدأون به وينتهون إليه عند تقرير النتائج ومابين ذلك، في البحث عن مرادهم من مضمون أو ظواهر، على تباينها لفظاً ومعنى.

وكذلك بدأت دراسة النصوص وتقويمها ولاسيّما الشعر في القرن الثاني للهجرة

الشريفة.

فقد تتبّع أهل اللغـة هذا الجانب في النص، وبحثـوا فيه، ليجـدوا خصائص امتيـازه في مضمونه ولفظه.

فـالمنشـىء يـورد لفظـة تـدلّ على المثنّى، والبحث فيه يفيد أنّ لها معنى آخر.

يقول علي بن الغدير الغنوي :

وإذا رأيتَ المرء يشعـبُ أمـــره
شعبَ العصـا ويلجّ في العصيـان
فـاعمَـد لما تحلـو فما لك بـالـذي
لاتستطيع مـن الأمـور يـدان

فكلمة (يـدان) في سياق النفي لايـريد بهاَ الشاعر دلالتها في التثنية ولكن يريد ماتفيده كلمة: لبّيك وسعديك، من الكثرة والملازمة.

وكذلك معنى حرف (إنْ) في قول النابغة:

فإنك كـالليل الـذي هـو مُـدركي
وإنْ خلـتُ أنّ المنتـأى عنك واسع

فهل هي للنفي أو هي للجـزاء، وما معنى البيت على كل وجه.

وتكـرار الجنس النحـوي اسماً وفعـلاً وحرفـاً، ومرادُ الشاعر كما في قـول أُحَيْحة ابن الجُلاح:

يُـــراهنُني فيرهنُني بَنيـــه
وأرهنُـــــه بَنِيّ بما أقـــولُ
ومـــاتـــدري إذا أجمعتَ أمَـراً
بأيّ الأرض يـــدركُـك المَقيل
لما يـــدري الفقير متـى غنـــاه
ومـــايـــدري الغنيُّ متـى يُعيل
ومـــاتـــدري إذا انتجت سَقْبـــا
لأيّ النـــــاس يَنتقل الفَصيل
ومـــاتـــدري إذا أنتجْت شَـــوْلا
أتلقـحُ بعـــــد ذلك أم تحُيل

ومثله تكـرار شبه الجملة (لـه) في خمسة مواضـع قـول (إيليّا أبو ماضي) :

ولـــــه تضحـكُ البروق
ويبكي الحَيـــا السجـــامْ
ولـــه تَـرتعـي الكـــواكب
في مسرح الظـــــلامْ

وقـولـه أيضـا يكـرر الضمير والجار :

أنـــا ذلك الـــولـدُ الــذي
دُنيـــاه كـــانت ههُنـــا
أنـــا مِن ميـــاهك قطـــرة
فـــاضت جـداول مِن سَنـــا

يكـــــرر الضمير أربع مـــــرات .

لــلأرز يهزأ بـالــريـــاح
وبـالدُهـور وبالَقنا
للبحـــر ينشره بنـــوكَ
حضـــارة وتمَدُنـــــا

ويكرر الجار ست مرات.

ويجعل جنسـاً من النحـو في مـوضـع من قوله يفيد معنى لايقوم مقامه سواه، كما في قول يزيد بن خَذاق العَبْدي :

فلَت عينهـا عني سفـاهـا وراقهـا
فتى دون أضيـــاف الشتـاء شروبُ
دهينُ القفـا يُـدني تبيعَــة سيفـه
ومـاكلُّ أصحـاب السيُوف نَجيب

ففي قـولـه (فتى دون أضيـاف .. ) معنى من الهجاء خبيث.

ونحو ذلك استعمال حـرف معنى في العَقْد بين أسماء كما في قول نابغة بني شَيبان:

ألاَ هاج قلبي العامَ ظُعْنٌ بواكرُ
كما هاج مسحوراً الى الشوق ساحرُ
سُلَيمى وهند والرباب وزينب
وأروى وليلى صدْنَني وتمُاضر

ومنه تكرار نوع من حَروف المعاني نحو (إن) و(كلّ) واللام في قول أبي العَتاهية:

وإنّ لِكل تلخيص لوجها
وإنّ لكل مسألة جوابا
وإن لكل حادثةَ لوقتا
وإن لكل ذي عمل حسابا

وهكذا حتى يستوفي التكرار سبعة مواضع.

وكذلك الحذف وتحريك الكلمة بما يفيد جنساً من الكلام نحو قول الشاعر:

تَعدّون عقْر النّيب أفضل مجدكم
بني ضَوْطَرَى لولا الكَمي المُقنّعا

حذف العامل الذي بعد (لولا) ونصب الكمي، ووجه هذا الحذف. ومثله حذف جواب الشرط في قول الشاعر:

أَقيموا بَني النُعمان عنّا صدورَكم
وإلاّ تُقيموا صاغرين الرُؤوسا

ومراده: وإلاّ تقيموا تقيموا. وكذلك حذفُ المبتدأ في قول الكُميت:

أأُسلم ما تأتي به من عداوة
وبغض لهم لاخير بل هو أشجبُ

ومراده: لاأسلم، أي: لاهو أسلم، وجعل (لا) بدلاً منه، وحذف الخبر لتقدّم ذكره، وهو أشبه بقولهم: لاسواء.

وبالرغم من تنوّع العلوم التي استعان بها الدارسون والباحثون عندما ازدادت المعرفة وغنيت الثقافة، وفي مابعد حتى زمان متأخر، فقد لزم هؤلاء الدارسون والباحثون هذا الثُنائي في تقويم النص ورَوْزه وطلب خصائصه: اللفظ والمعنى. وليس إنكار المجدّدين لهذه المتابعة، وعدّهم لاتجاه دراسة اللفظ والمعنى شيئا مرفوضا، من قبيل أنّه اتجاه يجب إلغاؤه، وإنما هو اتجاه يجب تطويره ليتناسب وماصار إليه النص من تعقيد وغنى بالثقافة والفكر، ولاسيّما في زمننا الحاضر، بعد الحرب العالمية الثانية وفي ماتلاها من زمن خياليّ القياس في الاختراع والتطور التقني.

أمّا التطوّر قبل هذا الزمن فقد كان في القرنين الرابع والخامس الهجريين. ذلك في ماعُرف من استواء «نظرية النظم» في ماحقّقه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه «دلائل الإعجاز» «وأسرار البلاغة»، وفي ماتابعه من العلماء والدارسين، إن كان ذلك في دراسة ظاهرة الإعجاز القرآني أو في نصوص الأدب ولاسيّما الشعر والخطابة.

ومن أمثلة العناية اللغوية لأول عهد الدارسين للنص نحو ماذُكر من تخطئة الأصمعي لامرىء القيس في وصفه المَتْن بكثرة اللحم في قوله:

لها متنان خظاتا كما
اكَبّ على ساعديه النَمرْ

وما أخَذه عليه أيضاً في وصف الفرسَ في قوله :

فلِلسوْط ألهوبٌ ولِلساق دِرّةٌ

وللـزجـر منــه وقع أخـرجَ مُـهـذبِ

فهي فرَس بطيئـة لأنها تحوج إلى السوط والزجر. واعتذر الأصمعي للنابغة في قوله:

ألِكني يـــاعُيَينَ إليك قـــولا

ستحملـــه الـــرواة إليك عنّي

وذلك قوله (ألكني) يـريد: كن رسولي، ثم قـوله (إليك عني)، وجعـل ذلك ممّا حملتـه الرواة على النابغة.

وأخـذ على المسيّب نِسبـة الصفـة إلى غير موضعها في قوله:

وقـد أتَنـاسى الهَمّ عنـد احتضـاره

بنـاجٍ عليـه الصَيْعَـريّـةُ مُكْـدَمِ

إذ جعل الصَيعَرية صفة للنوق لا للفحول، وقـد سمعه طَـرَفـة فقال: اَستنـوقَ الجمل، وضحك مَنه.

وأُخذ على الأعشى إتيانه بألفاظ متقاربة في المعنى في قوله:

وقـد غـدوت إلى الحانـوت يتبعُني

شـاوٍ مشلٌ شلـولٌ شُلشُل شَـولُ

فذكـر أهلُ العلم بالشعـر أن الألفاظ التي بعد شاو متقاربة في المعنى.

وعاب الأصمعي على ذي الرمّة قوله:

حتى إذا دوّمت في الأرض أدركَهـــا

كِبرٌ ولـو شـــاء نجّى نفســه الهربُ

بأنّ الفُصحــاء لايقولـون: دوّم في الأرض ولكن: دوّم في الهواء، أيّ إذا حلّق، وأمّا دوّمَ في الأرض فمعناه إذا ذهب.

ومما ذكره أبو عبيدة من مذاهب العرب في الكلام اختصارُها لعلْم المخـاطب، نحو قول حكيم بن معية الربعي:

لـــو قلتَ مـــافي قـــومهـــا لم تأْثَمِ

يفضلُهــــــا في حسَبٍ وميسَـمِ

فقد حـذف (أحد) فاعل (يفضلها) لَـدلالة الكلام عليه.

وقول تميم بن أُبيّ بن مقبل مما استشهدَ به سيبويه على هذه الظاهرة:

ومـاالـدهـر إلاّ تـارتـان فمنهُما

أمـوت وأُخـرى أبتغي العيشَ أكدحُ

أراد: فمنهما تارة أموت.

وكذلك وصفه للزمان بالعَرْض في قوله:

وكل يَمانٍ طـولُـه مثـلُ عَـرْضـه

فليس لـــه أصلٌ ولاطـرَفـــانِ

فأخذ عليه ذلك. ولو التُمس له عذر بجعْلَ الـوصف بـالعَـرْض على المجاز أُجيب بأن العـرض هـو خلاف الطـول حقيقةً، وليس للـزمـان عـرْض حقيقـة فكيف تحمل على المجاز؟ إلاّ أن يُـوصف الزمن بنحـو قولهم: عاش فـلان في نعمة زمنـا طويـلاً عريضـاً، فهذا مقبول لـوصل العرض بالطـول وقَرْنه به، والمعنى عندئذ عاش في زمن تَمّ له وكمُل واتّسع، لأن العَـرْض ههنـــا بمعنى السَعَـة

ومن ذلك مـاحكـاه أبـو نصر عن الأصمعي من مؤاخـذته للطّرماح بجَعْلـه موضـع إحَن جمع إحنة حَنات في قوله:

واكـــره أن يَعيبَ عليّ قَـــومي

هجـائي الأرذلين ذوي الحنـات

وجعْله كلَمة حافر في موضع كلمة رِجْل في قوله:

فما رقـدَ الـولـدانُ حتـى رأيتُـه

على البَكْـر يَمْـريـهِ بِســاق وحـــافـرِ

وبلغت عنـايــة العلماء بهذا الجانب من تقويم النص في ما نصّ عليه الجاحظ أنّ الأمر في اللفظ من كل وجه، والوزن وصحة الطَبْع في النَظْم. وليس كـذلك المعنى، لأنـه مبذول، والعربي والعجمي فيـه سيّان. وهو مـاانتصر لـه مثلُ ابن رَشيق، فنصَّ على أنّ اللفظ حسنُ السَبْك، وصحّـة التأليف مناط المبدع، وإن حاول في منـاَقشته للفظ والمعنى في كـلام أهل المذهبين أن يقـرن بين اللفظ والمعنى. وهو مـافعله الباقـلاّني في دراسته للإعجاز القرآني، لكنّـه كان مُقدِماً للفظ كما يظهر ذلك في كلامه.

وظل هـذا المذهب على حـالـه يُعنى أهلـه باللفظ هنـا وهناك من النص مـن كل وجه: مخـارج أحـرف، ومـوافقةَ صفـات، وهيئـة صيغة، واستقـامَةَ مَعنى، ومنَاسبـةِ سياق، ومـاوراء ذلك من معـانٍ أرادهـا المُنشىء، وقصَـد إليها المُبـدع، ثم جاء عبد القاهر الجرجـاني في كتـابـه (دلائل الإعجـاز) و(أسرار البـلاغة) فجعل مـن تلك الوجـوه اللفظية والأشتات شيئا ذا بال، وبناء سامقا هو مـاعرفنـاه بعد ذلك بـ (نَظريـة النَظْم) التـي شملت المعنـى والمبنـى، وألّفـت بين شتيتين لايقبـلان الانفصـال ويعـزّان على الافتراق، فنصّ قـولـه: «هـذا هـو السبيل فلست بواجـد شيئا يرجح صوابـه إن كان صـوابـاً وخطـؤه إن كـان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هـذا الاسم، إلاّ وهو معنى من معـاني النحـو قـد أُصيـب بـه مـوضعـه، واستعمل في غير مـاينبغي لــه، فـلا تـرى كـلامـاً قد وُصف بصحـة نظْم أو فَسـاده، بمـزيّـة وفضل، إلاّ وأنـت تجد مـرجع تلك الصحـة وذلك الفســاد وتلك المزيـة، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكـامه، ووجدته يـدخل في أصل من أصـوله، ويتصل ببـاب من أبـوابـه» وقــد فصّل هـذا، ووضّـحـه، وتتبّعه بالعرض والمناقشة والتقرير، واحتجّ لـه، ودعّمـه، وبـرهن عليـه في سفْـريـه المذكورين. وقـد بدأ كـلامه في الـدلائل بعد مقدمة يسيرة فقـال: «معلوم أن ليس النظم سـوى تعليق الكلم بعضهـا ببعض، وجعل بعضهـا بسبب من بعض، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحـرف، وللتعلق في مـا بينها طـرُق معلومة... » وكلامَه هذا يسير واضح جامع مـانع لُمراد الـدارس والبـاحث في النص من كل وجَه.

فهو مـوافق لما صار إليه العقل في أيـامه، وأسـاس لما يمكن أنْ يصير إليه من الفكـر والثقافة والَمعرفـة ومثال ذلك مانحن اليوم عليه من الإبداع الأدبي وتطوّر فنون القول والغنى الثقافي.

ومَن أمثلة ما أتى عليـه في الدلائل تقويمه للكلمــــة لا في ذاتها صيغـــةً ولامعنىً ولامفـردةً، ولكن في مـوضعهـا من الكـلام نحـو كلمة الأخـدع في بيت الصمة بن عبد الله قوله:

تَلفَتُّ نحـو الحَي حتى وجـدتُني
وجِعت من الإصغـاء لِيتـاً وأخْدعـا

وفي بيت البُحتري قوله :

وإني وإن بلغتني شرف الغنى
وأعتقت من رقّ المطامع أخْدعي

فهي في هذين البيتين مالايخفى من الحُسن، في أولهما يشكو الشاعر مالحقه من الألم لطول التفاته إلى حديث الديار وإقامته عليها، وفي الثاني يشكر معطيه والمنعم عليه إعتاقه من أسر الحاجة، وذلّ الطَّلَب.

ونحو نظم الكلام بعضه مع بعض في هذا البيت:

الليل داجٍ كنفا جلبابه
والبينْ محجورٌ على غُرابه

فأتى المعنى على هذا الجمال من جَعْلَ جلباب الليل وحبس غراب الفراق من حيث تأليف هذه الكلمات على نحو حقّقَ هذا الجمال من كون «الليل» مبتدأ و «داجٍ» خبره، والخبر عاملا في مابعده، ومابعده مضاف ثم جعل في المضاف إليه ضميرا يرجع إلى المبتدأ، وكذلك الشطر الثاني من البيت. ولو جاء تأليف البيت على نحو آخر لضاع المعنى وجماله.

ونحو إضمار الفعل والإتيان بمعموله في قول الشاعر:

ديارَ مَيَّةَ إذ مَيٌّ تُساعفُنا
ولايَرى مثلها عجمٌ ولاعربُ

فكلمة (ديار) نصبت بتقدير: أذكر ديار. وهذا مما يطّرد الحذف فيه على القطْع والاستئناف بعد أن يتقدم ذكر بعض أمره، فيؤتى بالخبر دون المبتدأ نحو قول عمرو ابن معدي كرب:

وعلمتُ أنيَ يوم ذا
ك مُنازل كعباً ونهْدا
قومٌ إذا لبِسوا الحديَ
دَ تنمّروا حلقا وقِدّا

فكلمة (قوم) موضع الشاهد في البيتيِن.

واستمر الزمان بالناس على حالهم، يتابعون هذا المذهب وغيره، يُقوّمون النص، وينظرون في آثار الإبداع، واللغة بكل عناصرها موضع اهتمامهم، ومطلبهم في أعمال المنشئين والمبدعين، حتى كان العصر الحديث.

لزم الدارسون المنهج الذي توّجتْه نظرية النظَم في عمل عبد القاهر الجُرجاني وتابع الباحثون العناية باللغة ومفرداتها في العمل الفني، وإن تراجعت الأصالة عند كثير من هؤلاء الدارسين، يمثّل ذلك درسُ البلاغة العربية في تقويم النص، وغلبَت المُتابعة عرْضاً وتقريراً دون المناقشة والبحث والتفتيش، أو دون حساب المعاصرة والزمن، فجاءت نتائج الدراسة من كل وجه تاريخية تقريرية لاصلة لها بالحاضر، واقتصر الكلام على أصول النص القديم والبحث عنها. فإذا كان الدرس اللغوي الحديث؛ نشأت نزعة التجديد، واشتدَّ الخلاف حول بعض المعايير الفنية ولاسيّما النص الشعري الحديث، وثبتت طائفة من المجددين الأصلاء جعلت الدراسة الفنية والبحث اللغوي يُناقشان القديم، ويهجُمان على القدماء، ويظهران مالأصيل القديم من

جوانب جديدة بمعايير لغوية حديثة، حتى كان هذا الجديد بعْثٌ لنظرية النظْم بزيادة المعاصرة والانتفاع بما عند الغَرْب والشرْق في هذا الجانب، وأغلبه تناولٌ للغة ومفرداتها. ولم تهمل جوانب أُخرى ذات صلة باللغة كاستخدام بحور الشعر. فقد تتبّع الدارس هذا الجانب في عمل أحمد شوقي، فوجده أغفل بحوراً كالمديد والمُنْسرح والمضارع ورصَد استعمال مجَزوء الأبحر تاريخياً، وأفاد أنّ المحدثين ومن بينهم شوقي، أحيوا نظم الشعر على مجزوء البحور، وعبّدوا الطريق اليها. وتحقّق من عدة ظواهر كانت في حساب القدماء بمعنى شكْلي نحو الجناس والوقوف به عند الجرس الموسيقي، وأنه في الشوقيات ليس كذلك. بل له صلة بالمدلولات في أغلب الأحيان وصفاتها. وتعمّق في دراسة الجنس النحوي ودقّق فناقش أمر تعويض حرف جر بحرف آخر، فقرّر أن ذلك من قبيل الاشتراك بين العلامات والدلالات لما في العربية من تنوّع حروف الجر واشتَراك الحروف في الدلالة على معنى واحد، وقدم هذه المسألة.

وفي هذه الدراسة القيّمة تجديد وعمق لهذا الجانب من البحث اللغوي في تقويم النص. فقد جعل الباحث المعنى واضحاً في نفس اللغة وجنسها. وقرّر أن التركيب يفيد معنى انقلاب الوضع والتحول كما في قول الشاعر:

خفَضوا في يوم (سعد) هامَهُم
وبسعد رفعُوا أمسِ الجِباها

وقوله أيضا :

وبعد غد يفارق عامُ بؤس
ويخلفُه من النعَماء عامُ

وهذا واضح في تقديم فعل (خفضوا) وتأخير فعل (رفعوا) عكس تركيب، وفي إسناد الفعلين إلى نفس الفاعل، تصوير لوضع التغيير وكذلك الأمر في البيت الثاني بتقديم الفاعل (عام بؤس) وتأخيره في صيغة أخرى (من النعماء عام) ليفيد المعنى المراد من التغيرّ والتحوّل.

ودرس النَظْم ومافيه من علاقات وذلك نحو قول السيّاب:

وإذا رأيت عيون حَيرتك الرضية كالمحار
ترتج غضبى في قرارة جدول ضحْل القرار

فجعل تركيب هذا القول مبنيا على صلات إسنادية متعددة مترابطة وإن كانت من صنف الكلام الذي يحُكم بقاعدة: لايحسُن السكوت عليه، أي أن تلك العناصر الإسنادية، وما انضاف إليها من متعلقات صفة وحال، ليس الترابط بينها أساسياً، ولا هو هدَفا للتركيب، لأن الشرط يحتاج إلى جواب، فالفائدة تتمُ به وهو قوله:

أفلا تطاردُك العيون
أمّا تبصرُك احْتقار

وهذا من شأن النحو وأحكامه في ضبط أجناس الكلام.

ويخلص باحث إلى تقرير الدراسة والبحث في النص بأنها تريد إيجاد مفهوم يوضّح الصلات المعنوية في النص على هدي العلاقات اللغوية والنحوية والمنطقية، ثم العلاقات الفكرية. والبحث عن وحدة بين أجزائه. ويشرح هذا في تقويم ناقد لقصيدة محمود حسن اسماعيل، ومدى صحّة حكمه عليها بالتفكك الظاهري، وعماً فيها من قفزات، وأن مرجع ذلك إغفال الناقد البحث عن استمرار السياق والتفتيش عن الصلات الخفية وعماً فيها من مجَاز جعلها في نظره ضبابية.

ويعرض دارس آخر للغة الشعرية بذاتها من حيث قبولها للتحليل بالرغم من اختلافها عن لغة النثر. وذلك في مستوييها الصوتي والدلالي. وقد غدا لهذه اللغة قوانين ومصطلحات صارمة، وصار لكل شكل لغوي مظهر صوتي يتبينّ في نظْمه وائتلافه، وهو معيار الشعر ومقياسه في نظر الجمهور.

وتتعدد الدراسات للنص ولاسيما من هذا الوجه، أي اللغة ومفرداتها: نحواً، وصرفا ولغة، حتى إنّ جوانب الدراسة الأخرى وأحكامها تُبنى على هذا الجانب من اللغة وتصدر عنه، وهو مانصّ عليه الأستاذ دُريد الخواجة بقوله: «ثمة وعي في النص وفي الديوان يفتّته وهو في جدله الخاص والعام، ثم يربط جزئياته في محاورها وإسقاطاتها في حيز الزمان والمكان ومستوى التحقيق والأحلام. هذا الربط له وعيه الخاص لدى الناقد أيضا، فليس البناء الشعري والتركيبات التعبيرية داخله هي صحيحة بالضرورة، وتوصل إلى (النتيجة) التي رنا إليها الشاعر، مما يجعل نتيجة إعادة التركيب داخل السياق الشعري مغايرة تكشف عن عناصر تضليل وثغرات، على الناقد تقع مسؤولية ملئها من خلال وعي بنيات النص أو الديوان من جديد والقبض بقوة على جدل المضمون والأشكال التعبيرية...».

ولم يزل هذا الاتجاه في دراسة النص وتقويمه يتسع ميدانه، ويكثر مؤيدوه، ويعلو سلطانه، وإن زاحمته اتجاهات أخرى، كثير منها قديم، وبعضها يستهوي مَن يؤْثر العافية، ويرغب في الراحة والدّعة.

وهذا الاتجاه يستلزم من الدارس والباحث قدرة ومؤونة وتمكّناً لايستطيعه كل أحد من الدارسين. ثم إن في لزوم هذا الاتجاه في الدرس يباين الزيف، ويعرض عن التقليد الذي إن درس النص كان بعيدا عن مواطن الإبداع الحقّ، ويلابس مواضع الحقيقة من مراد المنشيء وأغراض المبدع في هذا اللفظ أو ذاك من أجناس النحو التي يأتلف منها الكلام ويظهر فيها الإعجاز. ■

## (أهم المصادر والمراجع)


■ أبو العتاهية: أشعاره وأخباره
اسماعيل بن القاسم بن سويد
تحقيق الدكتور شكري فيصل
منشورات جامعة دمشق ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥

■ اتجاهات الشعر العربي المعاصر
د : احسان عباس
سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٧٨

■ الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين
أبو بكر محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم
تحقيق د : السيد محمد يوسف
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٨

■ إعجاز القرآن
أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب
تحقيق السيد أحمد صقر

■ إيضاح الشعر (شرح الابيات المشكلة الاعراب)
أبو علي الفارس الحسن بن أحمد بن عبد الغفار
تحقيق د : حسن هنداوي
دار القلم بدمشق ودار العلوم والثقافة بيروت ١٤٠٧ هـ

■ بنية اللغة الشعرية جان كوهن
ترجمة محمد الولي ومحمد العمري
دار تونقال للنشر الدار البيضاء المغرب ١٩٨٦

■ البيان والتبيين عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق عبد السلام هارون
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٨

■ تبر وتراب ايليا أبو ماضي
دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٨

■ الحيوان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق عبد السلام هارون
مطبعة البابي الحلبي القاهرة ١٩٣٨

■ خصائص الأسلوب محمد الهادي الطرابلسي
السلسلة السادسة:
الفلسفة والآداب المجلد العدد ٢٠ منشورات الجامعة التونسية ١٩٨١

■ دلائل الاعجاز في علم المعاني عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد
أبو بكر الجرجاني تصحيح السيد محمد رشيد رضا
دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ١٩٧٨

■ ديوان نابغة بني شيبان عبد الله بن المخارق ابن سليم
دار الكتب المصرية الطبعة الأولى القاهرة ١٣٥١ هـ

■ الصفة والمسافة دراسات في الشعر العربي السوري المعاصر دريد يحيى الخواجة
منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٨١

■ العمدة في صناعة الشعر أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٣

■ في التركيب اللغوي ملك يوسف المطلبي
منشورات وزارة الثقافة والإعلام الجمهورية العراقية ١٩٨١

■ الموازنة أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٩٥٩

# مخطوط نادر في علم الفصد

دراسة وتقديم:

الدكتور مسلّم الزيبق



يحتفظ قسم المخطوطات في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بمخطوط نادر في علم الفصد، بعنوان: «عقيلة العقلاء في علم الفصد عن الفضلاء»

**وصف المخطوط :**

يتألف المخطوط من ثلاث وثلاثين ورقة. وهو يقع ضمن مجموع يحوي ١٦٠ ورقة (يسبقه القسم الأخير من مخطوط المختصر الفارسي لمحمد بن محمد بن عثمان الصقلي التونسي، وتليه أوراق تتعلق بالأطلية والأدهان).

والمخطوط المذكور هو من القطع المتوسط (٥ر٢٢*٥ر١٧سم). أصابته الرطوبة قليلاً في حوافّه، وجرى ترميم قديم لبعض ورقاته. وقد احتوت الصفحة الواحدة منه عشرين سطراً كتبت بخط مغربي، وبمداد أسود. في حين كتبت عناوين الأبواب والمداخل باللون الأحمر (دون الإشارة إلى تاريخ النسخ).

وورقات المخطوط غير مرقّمة، لكنها مزوّدة بتعقيبات خارج الإطار الذي يؤطّر متنه، والمسطّر باللونين الأحمر والأزرق،

مما يترك مساحة واسعة للهوامش الخالية من الشروح أو التعليقات.

وتحوي الصفحات : (١٥٢/ب - ١٥٣/أ - ١٥٣/ب - ١٥٤/أ) أحد عشر رسماً توضيحياً لمباضع تستخدم في حالات الفصد المختلفة. والمجموع مغلّف بغلاف جلدي بنّي اللون مذهب، ومزوّد بلسان، ومزخرف بطريقة الضغط. وهو مسجل في قسم المخطوطات في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث برقم (٣٩٧٢).

**محتوى المخطوط :**

بداية المخطوط هي : «إن أحق ما أبتدىء به في الأحوال: الحمد للمدبّر الأزمان الذي أبدع الإنسان بحكمته، وخلقه بمعرفته، وجعله تحت أوامره وطاعته، وجعل فيه الحواس الخمس منارات لهدايته، وعرفه أنواع العلوم برأفته ورحمته، وعلمه مالم يكن يعلم أمر بريّته، وفضله بما علمه على أكثر خليقته...». ويهدي المؤلف كتابه هذا إلى: «...مولانا السلطان الملك الناصر صلاح الدنيا والدين داوود بن الملك المعظم عيسى بن أبي بكر عظّم الله شأنه...». ويعلل ذلك بقوله: «مصنف لمولانا مقولة حاوية لجميع مايحتاج إليه من علم الفصد وعمله...لنردع الناظر فيها من أن يقدم على الفصد من غير الحاجة إليه، ومايقع له من الخطأ بمعرفة القوانين والشروط الواجبة عليه...».

ويستهلّ المؤلف كتابه بعرض فهرس لمحتوياته التي تضمنت واحداً وعشرين باباً: تشكّل الأبواب الخمسة الأولى مدخلاً هاماً لموضوع الكتاب، حيث يعتني المؤلف بضبط (مصطلحاته) وتحديد الأسس الأولية، والركائز النظرية المتعلقة بعملية الفصد. ففي الباب الأول الذي أسماه (حد الفصد): يعرّف (الفصد) بقوله: «تفرق اتصال إرادي في جلد وعرق، يتبعه استفراغ كليّ من العروق».

وفي الباب الثاني يحدّد الشروط التي تلزم الفاصد (على حد تعبيره) وهي:

(١) أن يكون خبيراً بمعرفة تشريح العروق.
(٢) أن يكون حافظاً فهماً بما تحت هذه العروق.
(٣) أن يكون في ذلك قد دربّته التجارب.
(٤) أن لايتعاطى الفاصد صنعة مهنية.
(٥) أن يكون متورعاً عن الكسب.
(٦) أن يكون الفاصد حاد النظر.
(٧) أن لايفصد في موضع قليل الصفراء.
(٨) أن لايفصد صبياً صغيراً.
(٩) أن لايفصد وهو منزعج أو متعكر.
(١٠) يجب على الفاصد أن لاتخلو أداته من الأدوية القاطعة للدم. ولعل هذا الباب هو من الأبواب الفريدة في المؤلفات الطبّية التي تتناول هذا الموضوع على هذا القدر من الدقة والتحديد. وهذا الأمر نلحظه أيضاً في الباب الثالث حين يتطرق إلى المسائل الكليّة المتعلقة بمنفعة الدم في بدن الإنسان وكيفية تولّده، وفي البابين الرابع والخامس يشرح الأغراض المقصودة بالفصد والأسباب الموجبة لخروج الدم.

أما الأبواب التالية فقد خصصها للحديث

عن (صناعة الفصد) وتناول فيها:

- آراء الناس في خروج الدم بالفصد (الباب السادس).
- المضرّة الواقعة بكثرة خروج الدم بالفصد (الباب السابع).
- في أيّ الأبدان وأي الأزمان وأي البلدان أجمل لخروج الدم بالفصد (الباب الثامن).
- في أيّ الأبدان وأيّ الأزمان وأيّ البلدان ينبغي أن يمنع فيها من خروج الدم (الباب التاسع).
- أمور تنفع من كان يعاين صناعة الفصد (الباب العاشر).
- في تدبير المفصود قبل الفصد، وأدويته، وأغذيته (الباب الحادي عشر، والباب الثاني عشر).
- في تثنية الفصد (الباب الثالث عشر).
- كميّة مايخرج من الدم بالفصد (الباب الرابع عشر).

ثم ينتقل المؤلف اعتباراً من الباب الخامس عشر إلى استعراض المهارات والخبرات الواجب توفرها في عملية الفصد، فيشير إلى: منافع شدّ العضو عند الفصد، وعدد العروق المفصودة، وكيفية فصد كل عرق، وذكر العلل التي يفصد لها كل عرق من هذه العروق، والعلل التي يضر بها الفصد، واستدراك خطأ الفاصد.

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

ويختتم المؤلّف كتابه بالباب الحادي والعشرين وهو بعنوان: «في ذكر أسماء المباضع التي يفصد بها وهيئة أشكالها». حيث يستهلّ هذا الباب بقوله: «إني لما رأيت العروق المفصودة التي تفصد في بدن الإنسان مختلفة الأشكال والأوضاع...رأيت أن أشكّل في هذا الباب أشكال المباضع التي يفصد بها كل عرق وعرق من العروق المفصودة وأذكر أسماءها...».

ثم يستعرض لنا من خلال عدة رسوم توضيحية نماذج مختلفة من هذه المباضع التي يقترحها لإجراء الفصد المتقن. ويبلغ عدد المباضع التي يسمّيها (ثمانية) أطلق عليها الأسماء التالية: (مبضع النشل - المبضع الريحاني - المبضع الحري - المعتدل - المعدّل - الرقيق - القاسي - أبوعيسى).

وينهي المؤلف كتابه بعبارة: «...بهذا نهاية ماوصلنا إلى معرفته من أشكال المباضع التي يفصد بها، وإن كانت أشكالها أكثر من هذه الأشكال فإن تشكّلها في مقالتي هذه فصل لايحتاج إليه، والله أعلم بالصواب».

**أهمّية المخطوط :**

يعدّ هذا المخطوط واحداً من المؤلفات القليلة في تاريخ العلوم التي تناولت (علم الفصد) تناولاً مستقلاً، ملماً بأركانه وشروطه واستطباباته وأسلوبه ومضاعفاته. ويمتاز المخطوط بأنه قد تمت صياغته بدقّة متناهية، بعيدة عن الاستطرادات والشروح المستفيضة، كما تمّ التطرق إلى محتواه بطريقة تنمّ عن سعة إطلاع المؤلف وموسوعية معارفه وتحصيله العلمي. إذ إنه يتضح من خلال النص أنه على دراية كافية بكليّات الطب والطبيعيات والعلوم السريرية والأدوية المفردة. إضافة إلى إلمامه بأهم المصادر الطبّية التي كانت متوافرة آنذاك، حيث ينقل عن (جالينوس والرازي وعلي بن العباس وغيرهم). لكنه لم يكتف بنقل مقتطفات من مؤلفات هؤلاء، بل تعاملَ مع هذه الاقتباسات من وجهة نظر نقدية، فناقش (المعلومة)، وحلّلها، ونقدها، وصحّحها. كذلك فإنه تعامل مع موضوع بحثه بشمولية تامة دون إغفال الحالة العامة للمريض أو وضعه السريري، ونقل إلينا خبرته العملية في أمور الفصد إلى جانب معارفه النظرية.

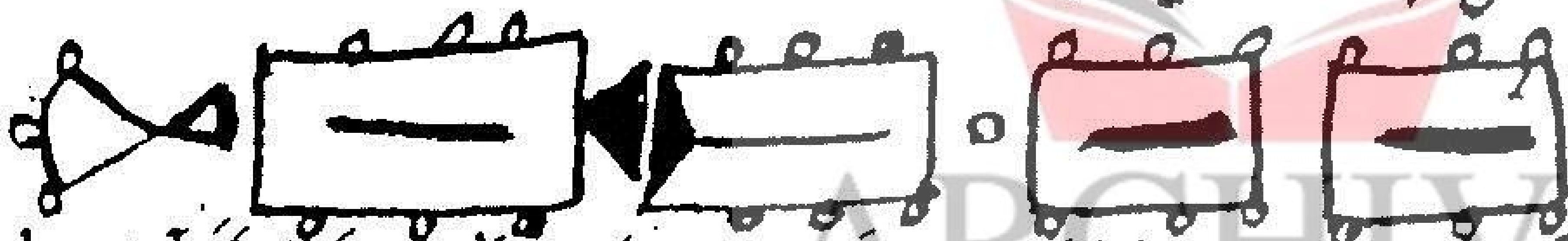
**نسبة المخطوط :**

من الواضح إذاً أن المؤلف قد أهدى هذا (الكتاب) أو( المقالة) إلى: (السلطان الملك الناصر صلاح الدين داوود بن عيسى ابن أبي بكر). ومن المعروف أن هذا الملك الأيوبي قد تولىّ مقاليد الحكم عن أبيه صاحب الكرك ودمشق (الملك المعظم شرف الدين عيسى بن أبي بكر) سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م. ثم انكفأ إلى (الكرك) سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م بعدما انتزع مدينة دمشق منه الملك الأشرف مظفر الدين أبو الفتح موسى. وقد خلفه في الكرك بعد وفاته الملك المغيث فخر الدين عمر بن العادل ابن الكامل سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م.

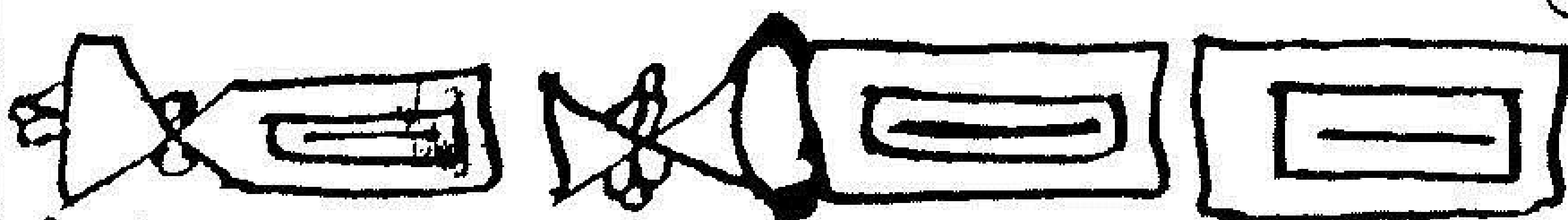
يفصد بها والصانع الحاذق يجد الافتقار بكل غيره من العروق المقصو
دة ما لا يوافقه من هذا المبضع وهذه صورة المبضع المعتدل



وهذا المبضع ينبغي أن يكون شكله لا دقيقا ولا غليظا ولا طويلا
ولا قصيرا وتكون شعرته ليست بالرقيقة ولا بالممدودة بل تكفي
معتدلة ... ذلك في أكثر وهذا المبضع أوفق لفصد ما كان من
العروق معتدلا فيما بين الرقة والغلظ وفي الأبدان المعتدلة ثم يليه
المبضع الرفيع الشعرة وهذه صفته



وهذا المبضع يقرب شكله من شكل مبضع الأسل غير أنه دقيق
الشعرة وذلك أوفق في الفصد لما كان من العروق زوال وذلك ليس يخاف
نفوذه بسبب دقة شعرته ويبقى علينا ذكر شكل المبضع المعروف
بالفاس



وهو الذي ذكرنا أنه يفصد به عرق الجبهة ونضيف إلى أشكال ما ذكرناه
أشكال مباضع إن نعرف من هذه الأشكال يكون ذلك مثالا لمن أراد
أن يعمل مباضع منفعتها كثيرة وربما مثلنا هذه الأشكال لم ...

أشكال بعض المباضع المستعملة في الفصد كما رسمها المؤلف

وهذا يعني أن المؤلّف قد شهد عصراً مزدهراً في بلاد الشام تمثّل بتعدد المدارس والعلماء، وتنوّع المذاهب العلمية والطرائق التعليمية. وهو العصر الذي شهد: (شرف الدين الرحبي) و(موفق الدين عبد اللطيف البغدادي) و(ابن النفيس) و(مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار) و(رشيد الدين الصوري) و(ابن أبي أصيبعة) و(نجم الدين بن المنفاخ) وغيرهم.

ولقد بحثنا في المصادر والمراجع المتوافرة لدينا فلم نعثر على ذكر لهذا المخطوط. حيث لم نجده عند (بروكلمان) و(سارتون) و(مايرهوف) و(هيرشبرغ) و(براون). كما لم نجده في أمهات المصادر والمراجع التي تهتم بالمصنفات العربية.

ونحن نأمل -إن شاء الله- أن تتاح لنا فرصة تحقيق هذا المخطوط الهام لعلنا نستطيع التوصل إلى مؤلّفه. والله الموفق.■



# الشيخ جمال الدين القاسمي

(١٢٨٣ هـ - ١٣٣٢ هـ)

(١٨٦٦ م - ١٩١٤ م)

## حياته - آثاره

اعداد: محمد رياض المالح



يعد الشيخ جمال الدين القاسمي أحد أعلام العلماء في بلاد الشام، ومن رجال النهضة العربية الحديثة في نهاية القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجريين.

تميز بالفكر العميق النيرّ المتحرر، والتأليف الواسع.

والمقالة التالية تترجم له وتتذكر مصادر ترجمته وتفهرس لآثاره.

### حياته

هو العلامة محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، وإلى جده هذا انتسبت أسرة القاسمي.

ولد بدمشق في ٨ جمادى الأولى من سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م، ونشأ بها في رعاية والده الفقيه الأديب، وعليه قرأ، كما أخذ على جملة من مشايخ دمشق ونزلائها عدداً

من العلوم، على رأسها القرآن الكريم والعلوم الإسلامية والعربية والجغرافية والهندسة والفلك. وكان من أشهر مشايخه الشيخ أحمد الحلواني، والشيخ سليم العطار، والشيخ بكري العطار، والشيخ محمد الخاني، والشيخ محمود الحمزاوي، والشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ حسن جبينة الدسوقي، وغيرهم. وحضر مجلس الشيخ عبد الرزاق البيطار وتأثر بعقيدته. وصحب الشيخ طاهر الجزائري الذي يعدّ في الشام صنو الشيخ محمد عبده في مصر. واجتمع بهذا الأخير عندما سافر إلى مصر أواخر حياته.

تصدّر لتدريس العلوم الإسلامية والعربية في حياة والده، وصرف عمره في الدرس والتعليم والتأليف والعبادة.

كان الشيخ جمال الدين القاسمي من علماء عصره المتميزين، عرف بأفكاره النيرة؛ إذ دعا إلى العلم والحرية ونبذ التقليد الأعمى من أجل أن يرجع للإسلام مجده ويرتفع شأنه. ولهذا فقد اتهِّم بأنه يريد إقامة مذهب جديد في الدين يُدعى المذهب الجمالي، الأمر الذي أقلق الدولة العثمانية فضيّقت عليه.

وكان يغلب عليه الجد في حياته، يقول الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، يُعرض عن الجاهل المعاند ويدفعه بالتي هي أحسن، نزيه اللسان بعيداً عن المراء والجدل، لايمدح نفسه ولا يعرّض بأحد وكان يقول لطلابه: «ينبغي أن تكونوا بعيدين عن الجدال غير المثمر».

وكان الشيخ جواداً سخياً، مات ولم يترك شيئاً يذكر. كما كان عالي الهمة لايكف عن طلب العلم؛ جاءه أستاذ متخصص بالرياضيات يريد دراسة العربية فأجابه إلى طلبه مشترطاً أن يتعلم عليه الرياضيات.

ولحرصه على تسجيل الفوائد اتخذ مفكرة صغيرة لاتفارقه يسجل فيها كل مايعرض له أو يذكر أمامه من مسائل. وكان ربما خطرت بباله ملاحظة في الطريق فينتحي زاوية حيث يقف ويسجل ماخطر له. ثم جمع هذه الخواطر في كتاب سماه «السوانح».

عفّت نفسه عن الأوقاف ووظائف الحكومة وتجنب التردد على رجال الدولة. وربما كان يزورهم قليلاً لدفع شر عنه.

ولحرصه على العلم وشدة محبته له رحل إلى الحجاز في غير موسم الحج مع صعوبة السفر آنذاك من أجل الاطلاع على كتاب «المحلىّ» لابن حزم. كما رحل إلى فلسطين بحثاً عن الكتب النادرة والاجتماع بأهل العلم.

وكان الشيخ دائب الحركة لايبالي بصحة جسمه في سبيل الحصول على العلم والسهر من أجله، فأشفق عليه بعض معارفه ونصحوا له بالسياحة للترويح عن النفس، فاستغرب من تلك النصيحة لما فيها من إهدار للوقت.

وأسلوب الشيخ جمال الدين في الكتابة أسلوب بسيط التأليف بعيد عن التعقيد غالباً إلا أنه أحياناً يتأنق في كتابته ويلتزم أسلوب عصره في السجع. قال يصف بلاغة العرب: «العرب فرسان الكلام، وأرباب النظام، وقد خصوا من البلاغة والحكم مالم يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان مالم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب مايقيّد الألباب. وجعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقةً، وفيهم غريزةً وقوةً. يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب. فيخطبون بديهاً في المقامات وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب. ويمدحون، ويقدحون، ويتوسلون، ويتوصلون، ويرفعون، ويضعون. فيأتون بالسحر الحلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل. فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب. ويذهبون الإحن، ويهيّجون الدمن. ويجرئون الجبان. ويصيّرون الناقص كاملاً، ويتركون النبيه خاملاً. منهم البدوي ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهري والمنزع القوي. ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف في القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية».

ثم ترك فيما بعد هذا الأسلوب وأخذ بطريقة الترسل فقال مرة في قوله تعالى: «وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة»: وكيف لايطمع العدو بالممالك الإسلامية، ولاترى فيها معامل للأسلحة وذخائر الحرب، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو؟ أما آن لها أن تنتبه من غفلتها، وتنشىء معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقى عليها تَنَقُّصُ العدو بلادَها من أطرافها درساً يجب أن تتدبره وتتلافى مافرطت به، قبل أن يداهم مابقي منها بخيله ورجاله، فيقضي والعياذ بالله، على الإسلام وممالك المسلمين، لاستعمار الأمصار، واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار».

وقد ترك الشيخ عدداً وفيراً من المؤلفات التي سنذكرها في الصفحات التالية، وهي تدل على تمكنه في العلم وسعة اطلاعه وهمته العالية. ولعله بدأ في التأليف منذ كان في السادسة عشرة من عمره، كما سنرى عند الحديث على رسالته «السفينة». والواقع أن مسيرته العلمية ومنهجه الفكري تطورا سريعاً، فإذا به لايرضى عن بعض مؤلفاته، ولهذا كتب يقول في مذكراته اليومية: «كلُّ مؤلف لي قبل سنة ١٣٢٠ هـ فلي فيه وقفةٌ». وقدْ نقل ولده ظافر عن عمه قوله: «كأن هذا الكلام وصيةٌ من أبيك في عدم طبع كتبه التي ألفها قبل هذا العام».

لم يعمر الشيخ جمال الدين القاسمي طويلاً وإنما أدركه أجله سنة ١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م ولما يصل إلى الخمسين.

وقد فجع لموته محبوه وعارفو فضله، ورثاه كثير من العلماء والشعراء منهم : عبد الرحمن القصار، ومحمد جميل الشطي، وتوفيق البزرة، وأخوه الدكتور صلاح الدين القاسمي، ومحمد بهجة البيطار، وغيرهم.

## مصادر ترجمته

- الأدب العربي في سورية لسامي الكيالي ١٥٤ - ١٥٧ دار المعارف بمصر ١٩٦٨.
- الأعلام لخير الدين الزركلي ٢/١٣٥ دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة ١٩٨٩ بيروت.
- أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري : للدكتور عبد اللطيف فرفور ١/ ٦١ - ٦٢ دار الملاح ودار حسان، دمشق ١٤٠٨/١٩٨٧.
- الأعلام الشرقية لزكي محمد مجاهد ٢/٩٤، مصر ١٣٦٨-١٣٧٤ هـ.
- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري لمحمد مطيع الحافظ ونزار أباظة ١/٢٩٨-٣٠٨، دار الفكر، دمشق ١٩٨٦.
- تراجم أعيان دمشق : لمحمد جميل الشطي ١١٨، دمشق ١٣٦٧هـ.
- تراجم مشاهير فضلاء القرن الثالث عشر لعلّه لمحمد أديب تقي الدين الحصني مخطوط بالظاهرية رقم ٦٩٧٠ فهرس التاريخ ص ١٥٤ للريان.
- جامع التصانيف ليوسف اليان سركيس ٦٣ و ٨٣ و ٩٦.
- جمال الدين القاسمي لظافر القاسمي مكتبة أطلس، دمشق ١٣٨٥/١٩٦٥.
- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار ١/٤٣٥ مجمع اللغة العربية بدمشق.
- رياض الجنة أو معجم الشيوخ لعبد الحفيظ الفاسي، الرباط ١٣٥٠ هـ.
- شيخ الشام جمال الدين القاسمي : لمحمود مهدي الاستانبولي، المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق، ١٤٠٥/١٩٨٥.
- فهرس دار الكتب المصرية، ٣/٢٤٢، ١٣٤٢-١٣٦١.
- فهرس الفهارس والأثبات لمحمد عبد الحي الكتاني، طبعة فاس ١٣٤٦ / ١٣٤٧هـ ١/٩٩ ، ٢٩٩ ، ٤٧٣، ٤٧٧،

٥١٦، ٦٧٢، ٨٨٠، ٩٣٧.

■ فهرس مكتبة بلدية الاسكندرية ١٦، ١٣٢٤ - ١٣٤٩ هـ.

■ قاموس الصناعات الشامية لمحمد سعيد القاسمي ١٩١، معهد الدراسات العليا، دمشق ١٩٦٠.

■ المذكرات لمحمد كرد علي ٣ /٦٨٧ - ٦٩٧، دمشق ١٣٦٧ - ١٣٧٠.

■ مصادر الدراسة الأدبية ليوسف أسعد داغر ٣/ ١٠٠٠ - ١٠٠٥، بيروت ١٩٥٦.

■ معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس ص ١٤٨٣ - ١٤٨٦، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

■ معجم المؤرخين الدمشقيين للدكتور صلاح الدين المنجد ٣٩٧ دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٨.

■ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٥٧/٣ و١١/ ٢٢٠، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٥٧.

■ معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين لعبد القادر عياش ٤٠٨ - ٤٠٩، دار الفكر بدمشق ١٩٨٥.

■ مقدمة شرح لقطة العجلان للزركشي. تأليف جمال الدين القاسمي.

■ منتخبات التواريخ لدمشق لمحمد أديب تقي الدين الحصني ٢/ ٧١٦ ، المطبعة الحديثة بدمشق ١٣٤٦/ ١٩٢٧.

■ الموسوعة الموجزة لحسان بدر الدين الكاتب مج٢، ٥/ ٥٦ - ٥٨، مطابع ألف باء - الأديب، دمشق ١٩٧٣.

## ماكتب عنه في الدوريات

■ مجلة التمدن الإسلامي، السنة التاسعة عشرة ٧٦٤ - ٧٦٦ مقال للأستاذ حامد التقي، والسنة الثالثة والعشرون، ٧٩٠ - ٧٩٢ مقال للأستاذ حمدي السلفي.

■ مجلة الحقائق، السنة الأولى ٢٢١ - ٢١٥ مقال الأستاذ عارف المنير.

■ مجلة الرسالة، السنة الثالثة ١٠٧٩ مقال الأستاذ محمد كرد علي.

■ مجلة الزهراء، السنة الأولى ٦١ مقال للأستاذ محب الدين الخطيب.

■ مجلة العرفان، السنة الثالثة ٣١٠ - ٣١١، والسنة الرابعة ٣٧٧ - ٣٨٨ مقال الأستاذ كاشف الغطاء.

■ مجلة لغة العرب، السنة الأولى ٣٦١ - ٣٦٢، والسنة الثانية، ٢٠٩ - ٢١٠، مقال أنستانس ماري الكرملي.

■ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، السنة الثالثة والثلاثون، ٦٥٧ - ٦٦٠، مقال للأستاذ محمد بهجة البيطار، والسنة الخامسة والثلاثون، ٢٤٥ - ٢٥٢، مقال للأستاذ ظافر القاسمي.

■ مجلة المقتبس، السنة الثالثة ٢٨١، والسنة السادسة ٤٩٠، والسنة السابعة ١٥٤، والسنة الثامنة ١٠٥ و١١١ و٢٢٤ و٢١٥ و٦٢٧.

■ مجلة المنار ٧/ ١٧، ٥٥٨ - ٥٦٠ و٦٢٨ و٦٣٦، و ١٨/ ٥٦٥ - ٥٥٧.

■ مجلة النبراس ١/ ٢٧٤.

## آثاره المخطوطة

اتبعنا في التعريف بها أن نذكر أولاً عنوان الكتاب، ثم مكان وجوده، يتلو ذلك فكرة موجزة عن الكتاب، ونختمها بذكر المصادر.

**١ - أجوبة ومسائل.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ جمع فيه الأجوبة التي أرسلها إلى بعض السائلين بين عام ١٣٢٩ و١٣٣٠ هـ في نحو خمسين صفحة من القطع الصغير وهو الجزء الأول.

■ كتاب جمال الدين القاسمي لولده ظافر القاسمي ٦٧٢.

**٢ - الاحتياط للخروج من الخلاف.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ في بضع صفحات لم يذكر فيها تاريخ.

■ جمال الدين القاسمي ٦٥٢.

**٣ - آداب العالم والمتعلم والمفتي والمستفتي.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ جرّده من مقدمة شرح المهذب للنووي، وانتهى منه سنة ١٣١٧ هـ . وجد بخاتمة نسخة أخرى : وتم العرض في أوائل شعبان ١٣١٨ هـ.

■ جمال الدين القاسمي ٦٤٨.

**٤ - الآراء الفلسفية في الموت ، وفي علاج الخوف منه ، وفي رفع الأوهام منه وفي رحمة وجوده ، وفي أن الحياة الحقيقية بعد الموت.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ في نحو ٢٨ صفحة من القطع الصغير.

جمعها في ١٥ ذي الحجة ختام سنة ١٣٢٢ هـ وعنوانها الطويل دليل على خطورة الموضوع.

■ جمال الدين القاسمي ٦٥٩.

**٥ – الارتفاق بمسائل الطلاق.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ دقق في مسائل الطلاق وذكر أهمها وهي ٨ مسائل أولها طلاق الثلاث وثامنها أنه لا نكاح إلا بوليّ.

■ جمال الدين القاسمي ٦٤٤، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٤، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣.

**٦ – إزالة الأوهام بما يستشكل من ترك سيدنا عمر لكتابة الكتاب الذي هم به عليه الصلاة والسلام.**

■ لم يعثر ولده ظافر عليها.

■ جمال الدين القاسمي ٦٨٨، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٤، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣.

**٧ – إعلام الجاحد، على قتل الجماعة المتمالئة بالواحد.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ رسالة في نحو ١٣ صفحة حقق فيها من الناحية الشرعية ، مايسمى في القضايا الجنائية اليوم «جهالة الفاعل».

■ تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥ ، جمال الدين القاسمي ٦٥٠، وشيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣.

**٨ – إفادة من صحا، في تفسير سورة والضحى.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ تم جمعها في ٢٩ ذي الحجة ختام عام ١٣١٤ هـ في ثماني صفحات.

■ جمال الدين القاسمي ٦٤٥، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣.

**٩ – الأقوال المروية فيمن حلف بالطلاق الثلاث في قضية.**

■ قال ولده لم أعثر عليه.

■ تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، جمال الدين القاسمي ٦٨٨، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣.

**١٠ – الأنوار القدسية على متن الشمسية في المنطق.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ شرح فيه القسم الأول من كتاب الشمسية في المنطق –قسم التصورات– ويقع في ٢٧٦ صفحة من القطع المتوسط. فرغ منه سنة ١٣١٢ هـ

■ تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، وجمال الدين القاسمي ٦٤٠، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣.

١١ - الأولياء.

■ ألّفه بعد مباحثة مع بعض الصوفية في أحد المجالس عن حقيقة الولي، جمعه في ٣ ربيع الأول ١٣٢٤ هـ في نحو ١٥ ص.

■ جمال الدين القاسمي ٦٦٢.

١٢ - إيضاح الفطرة في أهل الفترة.

■ في مكتبته عند أسرته.

■ قال في مقدمته : «قد اتفق أني تذاكرت مع بعض أهل الفضل والخبرة في مسألة الاختلاف في أهل الفترة، فحثني أن أبحث نصوصها، وكان ذلك عام ١٣١١ هـ». وهي في ٦٠ ص.

■ تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، جمال الدين القاسمي ٦٤٠، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣.

١٣ - بحث في جمع القراءات المتعارف.

■ غير موجود.

■ قال ولده لم أعثر عليه وإنما ورد ذكره في الثبت المنشور في مجلة المنار.

■ جمال الدين القاسمي ٦٨٨، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣.

١٤ - بديع المكنون في مسائل أهل الفنون (جزءان).

■ في مكتبته عند أسرته.

■ جمع فيه فوائد علمية ابتداءً من ذي القعدة ١٣١٣ هـ، يقع الجزء الأول في ٢٢٨ صفحة من القطع المتوسط، والثاني في ١٥٤ صفحة.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣، جمال الدين القاسمي ٦٤٢.

١٥ - بذل الهمم في موعظة أهل وادي العجم.

■ في مكتبته عند أسرته.

■ وصف جامع لرحلته إلى قضاء وادي العجم (قضاء قطنا جنوب دمشق)، وقيامه بالتدريس خلال شهر رمضان ١٣٠٩ هـ، وقد التزم فيه السجع. ولم يذكر ولده عدد الصفحات. أحصى في هذا الكتاب المشاهير في جميع القرى والمناطق التي وعظ بها. وأوضح التقسيمات الإدارية في ذلك العصر لقضاء وادي العجم.

■ تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، وجمال الدين القاسمي ٦٣٩، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣.

١٦ - بيت القصيد في ترجمة الإمام الوالد السعيد.

■ في مكتبته عند أسرته.

■ ترجم فيه لوالده سعيد القاسمي على طريقة الأقدمين، وضمنه ماقيل في رثائه والتعازي التي وردت إليه بوفاته وشيئاً من شعره. أنهى جمعه في الخامس من

شوال سنة ١٣١٨ هـ، ويبدو أنه أعاد النظر فيه كما هو واضح من الشطب. والترجمة في ثلاث وعشرين صفحة، والباقي في نحو ١١٥ صفحة.

■ تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، وفيه أن اسمه «بيت القصيد في ديوان الإمام الوالد السعيد»، جمال الدين القاسمي ٦٤٨، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣.

**١٧ - تعطير المشام في مآثر دمشق الشام (أربع مجلدات).**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ تاريخ حافل شرع فيه عام ١٣٠٨ هـ، وأتمه عام ١٣١٩ هـ، رجع من أجله إلى أكثر من خمسين كتاباً من كتب التاريخ. قال في معجم المطبوعات ص ١٤٨٤. بعد أن ذكره: لم أتحقق من كونه طبع أو لا. أقول: والصحيح أنه غير مطبوع.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣، الأعلام للزركلي ٢/١٣٥ جمال الدين القاسمي ٦٥١.

**١٨ - تعليقات على أوائل سنن أبي داود.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ في نحو ٢٢ صفحة من القطع الكامل لم يعرف لها تاريخ، ولكن من المرجح أن أكثرها كتب قبل سنة ١٣٢٠ هـ.

■ جمال الدين القاسمي ٦٥٢.

**١٩ - تعليقات على حصول المأمول لصديق حسن خان.**

■ ذكر في تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣.

**٢٠ - تفسير آية «إنا عرضنا الأمانة على السموات...» الآية ٧٣، سورة الأحزاب.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ تلخيص في ثلاث صفحات لمذاكرة جرت مع زمرة من أهل الفضل في دمر قرب دمشق في ١٤ ربيع الأول ١٣٢٤هـ. وقد أوضح رأيه في هذه الآية.

■ جمال الدين القاسمي ٦٦٥.

**٢١ - ثمرة التسارع، إلى الحب في الله تعالى وترك التقاطع.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ العنوان يدل على الموضوع، جمعها في ١٩ شوال سنة ١٣١٣ هـ، وهو في نحو ست صفحات من القطع الصغير.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، جمال الدين القاسمي ٦٤١.

**٢٢ - جدول في مخارج الحروف وصفاتها.**

■ قال ولده : هذا من الكتب التي لم أعثر عليها.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، جمال الدين القاسمي ٦٨٨.

**٢٣ – الجواب السني عن سؤال السيد أحمد الحسني.**

■ بحث موجز للسيد أحمد الحسني الجزائري في منسوخ القرآن، شرحه القاسمي في إحدى وعشرين صفحة من القطع المتوسط، وتمّ في رمضان ١٣١٤ هـ، ومعه تقاريظ للسيد محمد مرتضى الحسني، وعبد الرزاق البيطار.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣، جمال الدين القاسمي ٦٤٣، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥.

**٢٤ – جواب المسألة الحورانية.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ صادف وجود القاسمي في حوران عندما حلّ عيد الأضحى عام ١٣١٤، فسأله أحد الأشخاص عن شبهة الجبرية. وقد جاء الجواب في إحدى عشرة صفحة، كتبه في شهر محرم ١٣١٥ هـ، وأتبعه بفصل في الرد على مذهب المعتزلة في نحو أربع صفحات.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، جمال الدين القاسمي ٦٤٥.

**٢٥ – الجوهر الصاف في نقابة الأشراف.**

■ قال ولده : هذا من الكتب التي لم أعثر عليها.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، جمال الدين القاسمي ٦٨٨.

**٢٦ – حاشية على الروضة الندية، شرح الدرر البهية «لصديق حسن خان».**

■ علق حواشي على نسخته المطبوعة بالمطبعة العصرية عام ١٢٩٦. هـ بخطه، وقال في آخرها : تم إقراؤه تصحيحاً وتعليقاً في مجالس متفرقة في ١١ شعبان ١٣٢٨ هـ.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، جمال الدين القاسمي ٦٧٠.

**٢٧ – حسن السبك، في الرحلة لوعظ قضاء النبك.**

■ قال ولده هو من الكتب التي لم أعثر عليها.

■ جمال الدين القاسمي ٦٨٨، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٦، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤.

**٢٨ – درء الموهوم، من دعوى جواز المرور بين يدي المأموم.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ رسالة في خمس صفحات، كتبها عام

١٣٢٠ هـ والعنوان يوضح الموضوع.

■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٨/١، جمال الدين القاسمي ٦٥٥، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤.

**٢٩ - رد على مسيحي يزعم أن نعيم الجنة روحاني لاجسماني.**

■ رسالة في ثلاث صفحات، قال في مقدمتها: قص علينا في قرية (افتريس) من قرى الغوطة بدمشق في ١٣ صفر سنة ١٣٢٣ هـ شاب من المسلمين يتعلم في إحدى مدارس المسيحيين أن راهب المدرسة ألقى عليهم خطاباً بيّن فيه أن نعيم الآخرة للروح وحدها.

■ جمال الدين القاسمي ٦٦١.

**٣٠ - رسالة في أوامر من مشايخ الإسلام.**

■ قال ولده: هو من الكتب التي لم أعثر عليها.

■ جمال الدين القاسمي ٦٨٨.

**٣١ - رسالة في علم الأصول.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ تضمنت مباحث هامة في الفتيا والاجتهاد وغيرها، قال في مقدمتها: «اقتصرت فيها على لباب اللباب، نسجتها على منوال جديد، دعاني لجمعها مارأيت في مصنفات هذا الفن من الدخيل».

والرسالة في نحو مائة صفحة من القطع الكامل أتمها في ٩ جمادى الثانية ١٣٢٣هـ.

■ جمال الدين القاسمي ٦٦٠.

**٣٢ - رسالة في المسح على الرجلين.**

■ قال ولده: هي من الكتب التي لم أعثر عليها.

■ جمال الدين القاسمي ٦٨٨.

**٣٣ - رفع المناقضات، بين مايزيد في العمر وبين المقدرات.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ رسالة في نحو عشر صفحات من القطع الصغير وترك بها بياضاً في عشر صفحات أخرى، وكأنه كان عازماً على الزيادة ولم يكتب له ذلك. قال في مقدمتها: أما بعد فهذه رسالة سميتها ... نذكر أولاً نُقول المحققين، ونختمها بما يفتحه الباري إن شاء الله في هذا المقام المتين. والرسالة غير مؤرخة.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، جمال الدين القاسمي ٦٤١.

**٣٤ - زبدة الأخبار في ولدان الكفار.**

■ رسالة في نحو ١٢ صفحة حقق فيها الحكم الشرعي في الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار، وكذا الأصم

والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوة. قال في خاتمتها : عارضتها بأصل مسودتي في سويعة بعد الجمعة في ١١ ربيع الأول سنة ١٣١٩ هـ ولم يعرف تاريخ المسودة.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، جمال الدين القاسمي ٦٤٩.

**٣٥ - زوال الغشاء، عن وقت العشاء.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ رسالة ألفها بعد عام ١٣١٩ هـ أو خلاله، تقع في نحو عشر صفحات وهي رد على عالم مصري قرر أن هذه الصلاة تبدأ بعدخمس وأربعين دقيقة من غروب الشمس.

■ جمال الدين القاسمي ٦٥٠ وشيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤.

**٣٦ - السطوات في الرد على من منع العشاء قبل الصلوات.**

■ لم يذكره ولده في ترجمته التي جمعها.

■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤.

**٣٧ - السفينة.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ قال ولده : أقدم ماعثرت عليه بخط القاسمي مجموعة صغيرة، كتب عليها بخط الثلث: هذه السفينة مجموعة من الفوائد اللطيفة والمسائل الشريفة، وهي بخطه، كتبها سنة ١٢٩٩ هـ وكان له من العمر ست عشرة سنة. وهي في ثمانين صفحة من القطع الصغير.

والمهم في هذه السفينة أنها دلالة واضحة على عقل الفتى في هذه السن المبكرة، فلقد قيل قديماً: اختيار المرء قطعة من عقله. وفي الصفحتين الأوليين منها أبيات متفرقة لشعراء مختلفين، ثم في الصفحات الباقية مجموعة من الحكم والنوادر والوصايا والنصائح الأخلاقية والأحاديث النبوية، والفوائد واللطائف وغيرها.

■ جمال الدين القاسمي ٦٣٥.

**٣٨ - سؤال مستشرق وجواب حكيم.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ الظاهر أن هذا العنوان ليس من وضع المؤلف لأنه بغير خطه. وهو أن مستشرقاً روسياً حضر إلى دمشق، وسأل عن سر تشكيل المذاهب وتعددها، فأملاها عليه، وكتبها أخوه صلاح الدين، في ٧ جمادى الثانية ١٣٢٤ هـ وهي في نحو ٢٦ صفحة.

■ جمال الدين القاسمي ٦٦٥.

**٣٩ - السوانح :**

■ وهي نصوص تتضمن أفكاراً أو تفسير

موضوع أو آية تسنح له، فيسجلها في مفكرة.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ١٩.

■ جمال الدين القاسمي ٢٥٩.

**٤٠ – شرح العقائد.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ فيه أبحاث هامة ودراسات مستفيضة عميقة، ومناقشات بعض الفرق الإسلامية مع الرد عليها، ممايجعل هذا الكتاب في مصاف أمهات الكتب التي حررت العقيدة الإسلامية من جميع الشبه. وهو في نحو ٢٢١ صفحة. ألفه في أواخر جمادى الأولى سنة ١٣٣٠ هـ.

■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، جمال الدين القاسمي ٦٧٤.

**٤١ – شرح لباب المحصول في علم الأصول لابن رشيق.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ الأصل مخطوط، وهو اختصار لكتاب المستصفى للغزالي، علقه لخمس مضين من شعبان عام ١٣٢٧ هـ في منزله بدمشق، ولم يذكر عدد الصفحات.

وقال في مقدمته: استخرت الله تعالى في تعليقات تنم عن أسراره، وتمحص الحق في مجال الخلاف ومضماره، فالحق ضالتنا المنشودة، وطريقتنا المعهودة.

■ جمال الدين القاسمي ٦٦٩، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤.

**٤٢ – شرح مجموعة ثلاث رسائل في أصول التفسير والفقه.**

■ لم أجد لها ذكراً في ترجمة ولده التي جمعها.

■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤ وقال إنها مطبوعة.

**٤٣ – شمس الجمال على منتخب كنز العمال.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ ألفه بعد صلاة الجمعة العاشر من محرم ١٣١٦ هـ، وهو في نحو ٢١٤ صفحة من القطع الكامل أورد بعده قصيدة من نظمه في مدح الكتاب.

■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، جمال الدين القاسمي ٦٤٧، وشيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤.

**٤٤ – الطالع السعيد في مهمات الأسانيد.**

■ قال ولده: وهو من الكتب التي لم أعثر عليها.

■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، جمال الدين القاسمي ٦٨٨، وشيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥.

**٤٥ – الطالع المسعود على تفسير أبي**

السعود (لم يتم).

■ في مكتبته عند أسرته.

■ الكتاب كلمات وجيزة على تفسير العلامة أبي السعود خرّج فيه آثاره مما تدعو إليه الحاجة، شرع فيه في رجب ١٣١٥ هـ، ولم يكتب منه إلا ٣٨ صفحة.

■ تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٦، جمال الدين القاسمي ٦٤٦، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥.

**٤٦ – طراز الخلعة في حل قول الرملي: «وأقسام الاسم تسعة».**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ تقع في ست صفحات. تمت في ربيع الثاني ١٣٠٥ هـ، وأعاد فيها النظر في ٥ ربيع الأول ١٣١٤ هـ.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٦ وفيها اسمه: طراز الخلعة، فيما نقل من قول الرملي: وأقسام الاسم تسعة، جمال الدين القاسمي ٦٤٣.

**٤٧ – العقود النظيمة، في ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه العظيمة ومحاسن شريعته القويمه.**

■ في مكتبة ولده ظافر القاسمي.

■ جمع فيها ثلاث قصائد: للبوصيري، والقيرواني، وعائشة الباعونية. وهي بخط الشيخ محمد بهجة البيطار، كتبها في ٩ ذي الحجة ١٣٣٠ هـ. ولم يذكر عدد صفحاتها.

■ جمال الدين القاسمي ٦٧٣، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥.

**٤٨ – غنيمة الهمة على كشف الغمة.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ شرح فيه كشف الغمة عن جميع الأمة للشعراني. قال ولده: لم أجد فيه تاريخاً، وهو في نحو ١١٥ صفحة. وقد وصل إلى كتاب الطهارة وأحكام المياه، ولم يتمه. أرجح فيه أنه بدأ به قبل عام ١٣٢٠ هـ وأعاد عليه النظر بعد ذلك.

■ جمال الدين القاسمي ٦٥٦، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٦.

**٤٩ – فصل الكلام في حقيقة عود الروح للميت حين السلام.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ قال ولده: والعنوان ينبىء عن فكرة الرسالة. وهي في نحو ١٧ صفحة. تم جمعها في ٥ ربيع الأول ١٣١٤ هـ.

■ تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٧، جمال الدين القاسمي ٦٤٥، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥.

**٥٠ – قواعد أصولية.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ لم يذكر لها تاريخ. وتقع في ثلاث صفحات.

■ جمال الدين القاسمي ٦٥٢.

**٥١ – قواعد تفسيرية.**

■ قال ولده: لم يذكر لها تاريخ. وهي في نحو صفحتين.

■ جمال الدين القاسمي ٦٥٢.

**٥٢ – كتاب بدون عنوان ولاتاريخ.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ مؤلف من ٤٢ فصلاً في ٥٦ صفحة، نقل فيه عن المنار وعن جريدة «ثمرات الفنون»، كما اقتبس فصلاً –هو التاسع والثلاثون– عن الإمام محمد عبده. والكتاب يعالج قضايا العقيدة الصحيحة، والاجتهاد وبعض قضايا المجتمع الإسلامي.

■ جمال الدين القاسمي ٦٨٧.

**٥٣ – كناشة.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ ضمت فوائد متنوعة في الفقه والحديث والأدب والتاريخ وبعض التراجم لأعلام عصره، كما تضمنت مراسلات بين علماء العصر. وهي من اثنتين وأربعين صفحة من القطع المتوسط، لم يجعل لها خاتمة بل جاء بعدها أوراق بيض، مما يوحي بأنه كان يرغب في إضافة أشياء إليها.

■ جمال الدين القاسمي ٦٣٨.

**٥٤ – الكواكب السيارة في مدائح الفوارة.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ جمعه عام ١٣٠٩ هـ. وكله من شعر المولدين والمتأخرين.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، جمال الدين القاسمي ٦٣٩، تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١.

**٥٥ – الكوكب المنير، في مولد البشير النذير.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ مختصر من مولد السيدة عائشة الباعونية. وهو بخطه كتبه في ربيع الأول ١٣٠٦ هـ.

■ جمال الدين القاسمي ٦٣٧.



**٥٦ – لزوم المراتب في الأدب مع الإمام الراتب.**

■ لم أجد ذكراً له في ترجمة ولده التي جمعها.

■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥.

**٥٧ – اللف والنشر في طبقات المدرسين تحت قبة النسر.**

■ قال ولده: هذا من الكتب التي لم أعثر عليها.

■ جمال الدين القاسمي ٦٨٨، تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥.

**٥٨ – ماقاله الأطباء المشاهير، في علاج البواسير.**

■ ذكر ماقاله الأطباء المشاهير في علاج البواسير، أتى فيها على ذكر ماهية البواسير بشكل لايختلف كثيراً عما يعرفه الطب الحديث، ثم عرج على ذكر أسباب البواسير والمستعدين لها، وتشريحها، وأعراضها، وأهميتها. كتبها بيده عام ١٣٢٠ هـ ولم يذكر عدد الصفحات.

■ جمال الدين القاسمي ٦٥٣.

**٥٩ – مجموعة لطيفة، في نصوص إجازات منيفة.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ وهي إجازاته من أشياخه، جمعها في رجب عام ١٣٢٠ هـ ، وهي في ٤٢ صفحة من القطع المتوسط.

■ جمال الدين القاسمي ٦٥٦.

**٦٠ – محاورة في الفونوغراف.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ جمعها أخوه قاسم خير الدين القاسمي، وهي مراسلات جرت بين المؤلف وبين السيد محمد أبو طالب الحسني الجزائري عام ١٣٢٢ هـ، وتقع في حوالي ١٥ صفحة.

■ جمال الدين القاسمي ٦٥٨.

**٦١ – مسائل الإظهار.**

■ في مركز جمعة الماجد نسخة فريدة منه.

■ وهو شرح لكتاب إظهار الأسرار في النحو لمحمد بن بير علي الشهير ببركلي، ويقع في ٣٠٦ صفحات.

■ سجل مخطوطات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ورقمه فيه ٤٨٣٠.

**٦٢ – المسند الأحمد على مسند الإمام أحمد.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ هو تعليقات وجيزة على مسند الإمام أحمد، انتهى من تأليفه في ٦ ذي الحجة سنة ١٣١٣ هـ ويقع في ٦٨ صفحة.

■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١، جمال الدين القاسمي ٦٤١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥.

**٦٣ – المنتزه الأرفع في الفصول الأربع.**

■ في مكتبته عند أسرته.

■ جمع فيه ماوقع عليه في مدح وذم الفصول الأربعة نثراً وشعراً، كتبه عام ١٣٠٩ هـ ، ولم يذكر ولده عدد صفحاته.

■ جمال الدين القاسمي ٦٣٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اطلع بدور اهل الحديث في سماء الكمال، ورفع شامخ قدرهم على منصات عرائس المهابة والجلال، ونضر وجوههم وحلاها برونق مشارق الجمال، ومن عليهم بالاتصال الى كمل الرجال، فتسنموا ذروة الفضل والافضال، والصلاة والسلام على سيدنا وسندنا محمد الذي اوتي جوامع المقال، وانقذ الامة بنور هديه من الضلال، وعلى آله وصحبه خير صحب وآل، ما نثرت اقلام المحدثين عقود اللآل، ونظمت الطالب في سلك عزيز الاتصال، اما بعد فيقول الفقير محمد جمال الدين ابن محمد سعيد بن قاسم بن صالح بن اسمعيل بن ابي بكر القاسمي الدمشقي شرح الله صدره ويسر امره لما كانت رسالة الامام المسند النقي الشيخ اسمعيل العجلوني ثم الدمشقي افاض الله عليه سحائب الرضوان، واحله في غرف فراديس الجنان، المسماة عقد الجوهر الثمين، في اربعين حديثا من احاديث سيد المرسلين، رسالة تلقتها الفحول بالقبول، ورويتها الاصاغر عن الاكابر رجاء ان يكون لهم بمسانيدها اعلا وصول وقد جمعها من اربعين كتابا من كتب المحدثين، التي لها الشهرة الكبرى في العالمين، فلا جرم ان من اتصل باسانيدها العالية، ولاذ بحمى مروياتها السامية، ارتقى من اوج المسندات اعلاها، وقطف من جنا ثمرات رياض المسلسلات احلاها، عن لي في سنة (١٣١٤) ان اكتب شرحا عليها، يوضح ما تدعو اليه حاجة الواقف لديها من شرح بعض احاديثها الشريفة، وذكر تراجم ارباب المسانيد المنيفة، وضبط ما انبهم من اسماء الرواة، وسوق فوائد ولطائف عن الثقاة، وبيان بعض اوهام سرت للمصنف من عثرات الاقلام، فشرعت في ذلك مستعينا به تعالى فهو نعم المعين، وسميته الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين نفع الله به النفع العام، واحسن لمن دعا لي معه بالنجاة يوم القيام (تنبيه) لعل بعض [redacted] الناس [redacted] اذا طالع هذا الشرح ظن ان بسببه خرجت الرسالة عن موضوعها المعتاد اعني قراءتها رواية في مجلس او اكثر للاجازة بما حوته من كتب الحديث بجمعها فنقول له ربما كانت تقول القائلها دعني ليس بعشك فادرجي كأن هذا المغبون اعتاض عن درر الدراية، ببرد الرواية، وعن كشف لطيف السر بهذ كهذ الشعر مع ان المقصود اولا وبالذات، معاني الآثار المهمات، وما على المحقق المتصدي لاسماع هذه الرسالة من باس، ان يقرأها مع شرحها فيقف على معارف جلت عن القياس، ويستجلي دقائق في بضع ايام لا يجتني ثمرتها من غيره في اعوام، وليس بعزيز على ذي الهمة الجليلة، ان يسمع المتن والشرح في ايام قليلة، فكم من محدث قرأ البخاري ونحوه في مدة وجيزة كما سنذكره في ترجمة صاحب القاموس عند الكلام على سنن ابن ماجه وقد اتفق لي بحمده تعالى قراءة صحيح مسلم بتمامه رواية ودراية في اربعين يوما وقراءة سنن ابن ماجه كذلك في احدى وعشرين يوما وقراءة الموطا كذلك في تسعة عشر يوما وقراءة تقريب التهذيب مع تصحيح سهو القلم فيه وتحشيته في نحو عشرة ايام فدع عنك

صورة خط الشيخ جمال الدين القاسمي

٦٤ - **نسب السادة القاسمية.**

- في مكتبته عند أسرته.
- قدم له ببحث في الأسرة النبوية الطاهرة، وانتقال شرفها عن طريق البنات إلى الأسباط. وقد استغرق هذا البحث اثنتي عشرة صفحة، تلاها تواقيع أعلام العصر الذين اطلعوا على هذا المؤلف، وكان ذلك في ١٥ محرم ١٣٣١ هـ.
- جمال الدين القاسمي ٦٧٥.

٦٥ - **هداية الألباب لتفسير آية «وطعام الذين أوتوا الكتاب».**

رسالة في ثماني صفحات جمعها في ١٦ رجب سنة ١٣١٤ هـ.

- تاريخ علماء دمشق ٣٠٨/١، جمال الدين القاسمي ٦٤٣، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥.

٦٦ - **الوعظ المطلوب من قوت القلوب.**

- في مكتبته عند أسرته.
- اختصر فيه كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي، على نهج اختصاره لإحياء علوم الدين للغزالي. وهو آخر كتبه رحمه الله. أتمه قبل عصر الأربعاء ١٩ شعبان ١٣٣١ هـ في قرية جب جنين من أعمال البقاع أيام تجوله ويقع في ٢١٤ صفحة من القطع العادي.
- تاريخ علماء دمشق ٣٠٨/١، جمال الدين القاسمي ٦٧٦.

٦٧ - **وفاء الحبيب وعده، بإيضاح جهة الوحدة.**

- في مكتبته عند أسرته.
- جمعه من تقرير وإملاء شيخه العلامة بكري العطار في يوم عاشوراء الأربعاء سنة ١٣١٠ هـ.
- تاريخ علماء دمشق ٣٠٨/١، جمال الدين القاسمي ٦٤٠، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥.

٦٨ - **ينابيع العرفان، في مسائل الأرواح بعد مفارقة الأبدان.**

- اقتبسها من كتاب الروح لابن قيم، فرغ منها في سلخ رجب ١٣١٤ هـ في نحو ٢٠ صفحة.
- شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، جمال الدين القاسمي ٦٤٢، تاريخ علماء دمشق ٣٨٠/١.

## آثاره المطبوعة

اتبعنا في التعريف بها أن نذكر أولاً عنوان الكتاب والطبعة ومكان الطبع وتاريخه ثم المصادر.

**١ - الأجوبة المرضية عما أورده كمال الدين بن الهمام على المستدلين بثبوت سنّة المغرب القبلية.**

- ط١ مطبعة روضة الشام، دمشق ١٣٢٦ هـ في ٣٧ صفحة.
- تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٤، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣، جمال الدين القاسمي ٦٦١، معجم المطبوعات ١٤٨٤. وفيه أنه طبع بمطبعة المقتبس، ولكن عند معاينتي للكتاب تبين لي ماذكرته.
- رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١١٣٣٦.

**٢ - إرشاد الخلق للعمل بخبر البرق.**

- ط١ مطبعة المقتبس، دمشق ١٣٢٩ هـ في ١٠٤ صفحة. وقد طبع في السنة التي ألف فيها.
- أعلام دمشق ٦٢، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٤، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥ وفيه أن اسمه : فتاوى الأشراف، في العمل بالتلغراف.

جمال الدين القاسمي ٦٧٢.

**٣ - الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس.**

- أتمّ تأليفه في جمادى الأولى عام ١٣٣٢ وتوفي بعد أيام.
- ط١ دمشق ١٣٣٢ هـ في ٤٠ صفحة. ط٢ مصر ١٣٧٧ هـ.
- شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، جمال الدين القاسمي ٦٧٨.

**٤ - الإسراء والمعراج.**

- أتمّ تأليفه عام ١٣٢٩ ورجح فيه أن الإسراء جسدي والمعراج روحي.
- ط١ دمشق ١٣٣١ هـ في ٣٢ صفحة.
- تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، جمال الدين القاسمي ٦٧١.
- رقمه في مركز جمعة الماجد ص ٢٠٧٥٨.

**٥ - إصلاح المساجد، من البدع والعوائد.**

- أتمّ تأليفه في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٣٠ هـ.
- ط١ المكتبة السلفية، مصر ١٣٤١ هـ في ٣١٩ صفحة بتحقيق محب الدين الخطيب.
- أعلام دمشق ٦٢، تاريخ علماء دمشق ١/٣٠٥، جمال الدين القاسمي ٦٦٠.

**٦ - إقامة الحجة على المصلي جماعة قبل الإمام الراتب وأقوال سائر أئمة المذاهب.**

■ رسالة ألفها في ١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٢٢ بسبب تعرض بعض المفتئتين عليه في إمامة الناس.
■ ط١ مطبعة الصداقة، دمشق ١٣٤٢ هـ في ٧٢ صفحة.
■ جمال الدين القاسمي ٦٥٩.

**٧ – أوامر مهمة في إصلاح القضاء الشرعي في تنفيذ بعض العقود على مذهب الشافعية وغيرهم.**
■ ط١ مطبعة الترقي دمشق.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٥/١، معجم المطبوعات ص ١٤٨٤.

**٨ – الأوراد المأثورة.**
■ ألّفه لنقد كتب في موضوع الأوراد المأثورة وأتمه في ٢٧ شوال سنة ١٣١٩.
■ ط١ بيروت ١٣٢٠ هـ، في ٦٤ صفحة.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٥/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣، جمال الدين القاسمي ٦٤٩، معجم المطبوعات ص ١٤٨٤.

**٩ – تاريخ الجهمية والمعتزلة.**
■ نشر أولاً بمقالات متسلسلة في المجلد السادس من مجلة المنار ثم جرد في كتاب مستقل.
■ ط١ صيدا ١٣٢٠ هـ، في ٨٤ صفحة.
ط٢ مطبعة المنار، مصر ١٣٣١ هـ.

■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٥/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣، جمال الدين القاسمي ٦٨٧، معجم المطبوعات ١٤٨٤.

**١٠ – تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب.**
■ رسالة جمع فيها ١٠٣ قاعدة في بيان الواجب وغيره، لئلا يصبح المباح بصيغة الوجوب.
■ ط١ مطبعة والدة عباس، مصر ١٣٢٦ هـ في ٧٠ صفحة.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٥/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣، جمال الدين القاسمي ٦٨٥، معجم المطبوعات ١٤٨٤.
■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١٠٩٠٨.

**١١ – تنوير اللب في معرفة القلب.**
■ مقالة كتبها في ٢٧ ربيع الثاني ١٣١٥ هـ ونشرت في العدد الثاني والستين من جريدة الشام.
■ دمشق ١٣١٥ هـ، في ٣ صفحات.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٥/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٣، جمال الدين القاسمي ٦٤٥.

**١٢ – جواب الشيخ السنائي في مسألة العقل والنقل.**

■ مقالة في مجلة المنار نشرت عام ١٣٢٥ هـ.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٥/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، جمال الدين القاسمي ٦٦٦.

١٣ - **جوامع الآداب، في أخلاق الأنجاب.**
■ أتمّه في شعبان سنة ١٣٣١ هـ.
■ ط١ مطبعة السعادة، مصر ١٣٣٩ هـ في ١٥٠ صفحة.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٥/١، جمال الدين القاسمي ٦٧٧، معجم المطبوعات ١٤٨٤.
■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١٣١١٩.

١٤ - **حياة البخاري.**
■ نشره أولاً في مجلة العرفان، ثم جرده كتاباً مستقلاً.
■ ط١ مطبعة العرفان صيدا ١٣٣٠ هـ في ٣٠ صفحة، ط٢ بتحقيق محمود أرناؤوط.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، جمال الدين القاسمي ٦٧٤، معجم المطبوعات ١٤٨٥.
■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١٤٨٥٣.

١٥ - **خطب أو مجموعة خطب.**
■ جرّد فيه كثيراً من خطب الإمام الغزالي في الإحياء وقد جمعها في رمضان ١٣٢٥ هـ.
■ ط١ دمشق ١٣٢٥ هـ في ١٢٧ صفحة.
■ أعلام دمشق ٦٢، تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، جمال الدين القاسمي ٦٦٦، معجم المطبوعات ١٤٨٥.

١٦ - **دلائل التوحيد.**
■ ألّفه في رمضان ١٣٢٥ هـ وأعاد النظر فيه بعد فترة.
■ ط١ مطبعة المقتبس، دمشق ١٣٢٦ هـ في ٢٠٧ صفحة، ط٢ مطبعة جمعية التأليف والنشر الأزهرية، في ١٩٤ صفحة.
■ أعلام دمشق ٦٢، تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، جمال الدين القاسمي ٦٦٨، معجم المطبوعات ١٤٨٥.
■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١١٦٨٩.

١٧ - **الشاي والقهوة والدخان.**
■ مباحث عدة حول موضوعات العنوان تتعلق بأسمائها وصفاتها النباتية واجتنائها وماقيل فيها من الشعر ألفها مساء الجمعة صفر ١٣٢٢ هـ.
■ ط١ دمشق ١٣٢٢ هـ في ٥٥ صفحة.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، جمال

الدين القاسمي ٦٥٨، معجم المطبوعات ١٤٨٥.

١٨ - الشذرة البهية في حل ألغاز نحوية وأدبية.
■ مجموعة شعرية فيها بعض الألغاز وطبعت مع كتاب الطائر الميمون.
■ دمشق ١٣٢٢ هـ.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، جمال الدين القاسمي ٦٥٨.

١٩ - شذرة من السيرة المحمدية.
■ أراد من هذه الشذرة أن تتلى في الموالد أتمها في منتصف شوال ١٣٢١ هـ بالجامع الأزهر أثناء رحلته لمصر.
■ ط١ مطبعة المنار مصر ١٣٢١ في ٣٦ صفحة.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، جمال الدين القاسمي ٦٥٧، معجم المطبوعات ١٤٨٥.
■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١٢٢٨١.

٢٠ - شرح أربع رسائل في الأصول.
■ الأولى في أصول الشافعية لابن فورك، والثانية لابن عربي، والثالثة في المصالح للنجم الطوفي، والرابعة للسيوطي من النقاية. أتمه في بيروت ١٥ شعبان ١٣٢٤ هـ.
■ ط١ بيروت ١٣٢٤ هـ في ٨٠ صفحة.
■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، جمال الدين القاسمي ٦٦٤.

٢١ - شرح لقطة العجلان.
■ الأصل أي لقطة العجلان من تأليف الإمام بدر الدين الزركشي، جمع فيه أربعة علوم : الأصول والمنطق والحكمة والكلام، وأتمه في منتصف ربيع الأول سنة ١٣٢٥ هـ.
■ ط١ القاهرة ١٣٢٦ في ١٧٠ صفحة.
■ أعلام دمشق ٦٢، تاريخ علماء دمشق ٣٠٨/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، جمال الدين القاسمي ٦٨٥.

٢٢ - شرف الأسباط.
■ وضعه لإثبات أن شرف النسب يثبت من الأم أيضاً، أتمه في محرم سنة ١٣٣١ هـ ، وقد ضم أدلة لذلك من الكتاب والسنة واللغة وأقوال الفقهاء.
■ ط١ مطبعة الترقي، دمشق.
■ أعلام دمشق ٦٢، تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، جمال الدين القاسمي ٦٧٦، معجم المطبوعات ١٤٨٥.
■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١٢٢٨١.

٢٣ - الطائر الميمون في حل لغز الكنز المدفون.

■ هو لغز وضعه أحد الأدباء عن الماء.

■ ط١ مطبعة روضة الشام، دمشق ١٣١٦ هـ في ١٢ صفحة. ط٢ دمشق ١٣٢٢ هـ في ٢٤ صفحة.

■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٦/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، جمال الدين القاسمي ٦٣٧، معجم المطبوعات ١٤٨٥.

■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ٤٥٩٦.

٢٤ - **فتاوى مهمة في الشريعة الإسلامية.**

■ حول الحكم بالمذاهب الأربعة وهو مجموعة فتاوى مشايخ الإسلام الرسمية بالقسطنطينية حول الموضوع بقلم القاسمي ومحمد عبده.

■ ط١ مطبعة المنار، مصر ١٣٢٦.

■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤.

■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١١٥٧٤.

٢٥ - **الفتوى في الإسلام.**

■ هو من أهم كتب القاسمي ركز فيه على تولية الأكفياء. نشر أولاً في مجلة المقتبس عام ١٣٢٩ هـ، ثم جمع في كتاب في ٧٢ صفحة.

■ أعلام دمشق ٦٢، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١، جمال الدين القاسمي ٦٨٦، معجم المطبوعات ١٤٨٥.

■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١٠٩٠٢.

٢٦ - **الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين.**

■ هو في شرح الأربعين العجلونية في موضوع أسانيد كتب الحديث المعروفة، بدأ به عام ١٣١١ هـ، ثم زاد فيه عام ١٣٢٠ هـ

■ ط١ دار النفائس، بيروت ١٩٨٦ في ٥٢٧ صفحة. ط٢ دار النفائس بيروت ١٩٨٨. وكلتاهما بتحقيق عاصم البيطار.

■ شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، جمال الدين القاسمي ٦٥٥.

■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ٧٩٧٨.

٢٧ - **قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث.**

■ من أحسن كتب أصول الحديث، لخصه من عدة كتب معتمدة في هذا الفن.

■ ط١ مكتب النشر العربي، دمشق ١٩٣٥ في ٤١٤ صفحة. ط٢ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٩ و١٩٨٧. ط٣ دار النفائس، بيروت ١٩٨٦. ط٤ مكتبة عيسى البابي الحلبي، مصر ١٩٨٩. وكلها بتحقيق الشيخ محمد بهجة البيطار.

■ أعلام دمشق ٦٢، تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١، جمال الدين القاسمي ٦٥٤.
■ رقمه في مركز جمعة الماجد م خ ١٠٧٨٠.

٢٨ - محاسن التأويل (تفسير القاسمي) في ١٧ جزءاً.
■ جرى فيه على إظهار أسرار الشريعة وحقائقها على طريقة السلف الصالح حراً دون قيد، يفسر القرآن بالقرآن، وبالحديث، وبأقوال الصحابة والتابعين، والأئمة من مختلف المذاهب.
■ ط١ دار إحياء الكتب العربية، مصر من سنة ١٣٧٦ إلى سنة ١٣٨٠ هـ بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
■ أعلام دمشق ٦٢، تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١، جمال الدين القاسمي ٦٧٩. معجم المخطوطات المطبوعة للدكتور صلاح الدين المنجد ٩٩/١.

٢٩ - مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن.
■ ط١ مطبعة المقتبس، دمشق ١٣٢٨ في ٤٨ صفحة.
■ أعلام دمشق ٦٢، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١، جمال الدين القاسمي ٦٧٠، معجم المطبوعات ١٤٨٥.
■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ٢٤٠٩٨.

٣٠ - المسح على الجوربين.
■ رسالة ألّفها في مجالس آخرها ربيع الثاني ١٣٣٢ هـ.
■ ط١ مطبعة الترقي، دمشق ١٣٣٢ في ٦٤ صفحة بتحقيق قاسم خير الدين القاسمي، ط٢ مصر ١٣٧٧ في ٦٦ صفحة بتحقيق أحمد محمد شاكر، ط٣ المكتب الإسلامي، عمان وبيروت بتحقيق أحمد محمد شاكر ويليه تمام النصح في أحكام المسح للشيخ ناصر الدين الألباني بـ ٩٦ صفحة.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٤، جمال الدين القاسمي ٦٧٨، معجم المطبوعات ١٤٨٥.
■ رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١١٧٦١.

٣١ - منتخب التوسلات.
■ وهو متمم لكتابه الأوراد المأثورة جمعه عام ١٣١٥، وهدف فيه إلى الابتعاد عن الأدعية الخرافية التي تتداولها العامة.
■ ط١ دمشق ١٣١٨ هـ في ٢٨ صفحة.
■ تاريخ علماء دمشق ٣٠٧/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، جمال الدين القاسمي ٦٤٦.

٣٢ - موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين.
■ أشار إليه في رحلته إلى مصر وأن الشيخ

محمد عبده طلب منه تأليفه، وهو من الكتب المقررة في أكثر المدارس والكليات الشرعية في العالم الإسلامي، ويُعدّ من خيرة كتب الأخلاق الإسلامية وقد طبع طبعات كثيرة في أماكن مختلفة.

- ط١ مصر ١٣٣١ في ٤٠٤ صفحة بتحقيق محيي الدين صبري الكردي، ط٢ بيروت ١٩٨٠ في ٤٢٢ صفحة، ط٣ دار النفائس بيروت ١٩٨٠، ط٤ مكتبة القاهرة مصر، ط٥ دار احياء التراث العربي لبنان (بدون تاريخ)، ط٦ دار القلم العربي حلب (دون تاريخ)، ط٧ دار إحياء التراث بيروت ١٩٨٦، ط٨ دار الدعوة ١٩٨٦، وكلها بتحقيق عاصم البيطار.
- أعلام دمشق ٦٢، تاريخ علماء دمشق ٣٠٨/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، جمال الدين القاسمي ٦٦٣.
- رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١٣١٩١

**٣٣ - ميزان الجرح والتعديل.**

- ط١ مصر مطبعة المنار ١٣٣٠ هـ في ٤٠ صفحة.
- تاريخ علماء دمشق ٣٠٨/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، جمال الدين القاسمي ٦٧٣.

**٣٤ - النفحة الرحمانية شرح متن الميدانية في علم التجويد.**

- وضع على متن الميدانية تعليقات سنة ١٣٠٣هـ ، ثم نقحها وسمّاها النفحة الرحمانية، وضم لها تكملة في آداب التالي والتلاوة.
- ط١ دمشق ١٣٢٣.
- تاريخ علماء دمشق ٣٠٨/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، جمال الدين القاسمي ٦٦٢، معجم المطبوعات ١٤٨٦.

**٣٤ - نقد النصائح الكافية.**

- وضع السيد محمد بن يحيى بن عقيل كتاباً سمّاه «النصائح الكافية لمن يتولى معاوية» وبعث بنسخة منه إلى القاسمي، وطلب إليه رأيه فيه، وكان ابن عقيل أيّد مذهب من جرح معاوية رضي الله عنه ورهطه، فأجابه المؤلف بهذا الكتاب، وقد طبع على نفقة محمد نصيف أحد أعيان جدة.
- ط١ مطبعة الفيحاء دمشق ١٣٢٨ هـ في ٤٨ صفحة.
- أعلام دمشق ٦٢، تاريخ علماء دمشق ٣٠٨/١، شيخ الشام جمال الدين القاسمي ٧٥، جمال الدين القاسمي ٦٦٩، معجم المطبوعات ١٤٨٦.
- رقمه في مركز جمعة الماجد ص ١٣٩٦٦.

# تجربة المملكة المغربية

# في إنشاء شبكات

# التوثيق والمعلومات




بقلم: أحمد الفاسي الفهري

(مدير المركز الوطني للتوثيق)

**أ ـ مدخل عام :**

أُنشىء المركز الوطني للتوثيق في نهاية الستينات ليتكفل بمجموعة من المهام البحثية والتوثيقية. وتم إلحاقه بالسلطات الحكومية المكلفة بالتخطيط، وظلّ كذلك إلى حين إلحاقه مؤخراً بوزارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية.

ويقوم المركز بالبحث عن الوثائق والمعلومات المتصلة بالمملكة المغربية، وتتبعها عبر مختلف ميادين المعرفة، سواء جرى نشرها بالداخل أو الخارج. من قبل مغاربة أو أجانب، بهدف تنظيمها، ومعالجتها وخزنها، وإغنائها باستمرار، وبثّها لتكون أداة في خدمة التنمية والتطور.

ومن المهام التي أسندت للمركز مايلي:

- جمع ومباشرة وخزن وتوزيع الوثائق، والمعلومات التي تهم المملكة المغربية.
- توفير المعلومات الوطنية والأجنبية لمختلف أنواع المستعملين بالمغرب.
- ترسيخ الشبكة الوطنية للتوثيق

والمعلومات.

- إنشاء شبكات فرعية متخصصة للوثائق والمعلومات المرتبطة بالشبكة الوطنية، عن طريق التعاون مع كل الذين يجب أن تشملهم هذه الشبكة.
- مواءمة المناهج الجديدة مع المواصفات العربية والدولية.
- تمثيل النقطة البؤرية لجميع الأنظمة الإعلامية الإقليمية والدولية.
- تنظيم التداريب المتخصصة في قطاع التوثيق والمعلومات.
- تقديم الاستشارات التقنية لجميع الوحدات التوثيقية الوطنية.
- الإشراف على مهمة التخطيط في مجال التوثيق والمعلومات .

وأمام التوسّع الجامعي بواسطة نقل الجامعات إلى مختلف الأقاليم والمناطق المغربية وكذا خلق مناطق صناعية جديدة تنقل القطاع التوثيقي إلى مرحلة أخرى. وكان على المركز أن يواكب هذا التطور.

وقد سميت هذه المرحلة بفترة الانتشار الجغرافي، الشيء الذي تُرجم عمليا بخلق ممثليات للمركز في مجموع المندوبيات الإقليمية للوزارة، ويبلغ على الصعيد المحلي، وتمثيله في كل الأنشطة المتعلقة بميدان الاختصاص على الصعيد الجهوي.

وفي الوقت نفسه، تعددت ارتباطات وطلبات مختلف المؤسسات والوزارات للارتباط مع الحاسوب المركزي. وكان من نتائج هذا الانتشار، تولد الحاجة إلى خلق وبناء شبكات فرعية متخصصة، أطلق عليها تسمية الشبكات القطاعية للتوثيق والمعلومات، تصب كلها في الشبكة الوطنية الأم.

وهذا مادفع بالمركز إلى وضع تصوّر نظري عام لتنظيم هذه العملية.

**ب ـ التصور العام لبناء شبكات التوثيق والمعلومات:**

**ا ـ المقصود بالشبكة:**

ليس الهدف هو إعطاء تعريف أكاديمي للشبكة، وإنما نرمي إلى تقديم تعريف برغماتي نقصد من ورائه، توضيح مانتطلع إليه من الشبكات القطاعية.

وعليه تكون الشبكة القطاعية للمعلومات هي مجموع وحدات التوثيق والمعلومات المترابطة فيما بينها بروابط مضبوطة، تحرّكها رغبة مشتركة في التعاون من أجل بلوغ تغطية شاملة للإنتاج الفكري، الذي يهم مجالات تخصصها، وتنظيمها في شكل رصيد جماعي من المعلومات، بهدف تقديم خدمات أفضل لمستعمليها.

الشيء الذي يفترض وجود تنظيم قار، ونظام موحد للتواصل، وعمليات متعددة في جميع الاتجاهات. وهذا يتطلب بدوره وجود وحدات توثيقية منظمة ونشيطة، ومستعملين في جميع القطاعات حتى يتم

بناء مايمكن تسميته بالشبكة القطاعية المشتركة.

هذا، وتشكل كل شبكة قطاعية جزءاً لاينفصل من الشبكة الوطنية التعاونية للتوثيق والمعلومات التي تظل هي الهدف الأساسي من خلال هذا التصوّر.

**٢ ـ الأهداف الرئيسية للشبكات القطاعية:**

- حصر الإنتاج الوثائقي الوطني الذي يهم القطاع.
- جمع الوثائق والمعلومات القطاعية التي يحتاج إليها القطاع والعمل على بلوغ تغطية شاملة بالنسبة للانتاج القطاعي. (صناعة، فلاحة ، تجارة، تربية...).
- معالجة هذا الرصيد وخزنه وحفظه والتعريف به وإنشاء بنوك معلومات قطاعية جماعية.
- التعريف بخدمات المعلومات.
- تلبية حاجيات المستعملين.
- توحيد مناهج العمل بما يتمشى والمناهج الوطنية.
- التعاون والتنسيق في مجال اختيار وتطبيق التكنولوجيا الملائمة.
- تدريب العاملين.
- تكوين المستعملين.
- حصر الكفاءات والخبرات الوطنية في القطاع لتسهيل عملية التواصل.
- ضمان تنسيق فعّال وتعاون جيد بين مختلف المكوّنات.
- تسيير قنوات تبادل المعلومات في جميع الاتجاهات.
- الاستغلال المشترك للموارد المتاحة قطاعياً.
- العمل على تطوير الشبكة وتمتين الروابط بين مكوناتها.
- الوصول إلى بناء شبكة وطنية منسجمة وشمولية.

**٣ ـ مكونات الشبكة القطاعية:**

تتركب الشبكة القطاعية من المكوّنات التالية:

- وحدات التوثيق والمعلومات العاملة في القطاع.
- مركز قطاعي منسّق.
- لجنة للتتبع والتنسيق القطاعي.

**٣,١ ـ وحدات التوثيق والمعلومات:**

ونركّز هنا على تلك الوحدات العاملة في القطاع أو ذات الصلة به، بما في ذلك مراكز ومصالح ومكاتب وخلايا التوثيق والمعلومات والمكتبات المتخصصة والجامعية، وكذا الهيئات والأجهزة التي يمكنها أن تقدّم خدمات في إطار الشبكة القطاعية أو مساعدات لها.

وتقوم كل وحدة توثيقية مشاركة بدورها في إطار الأهداف الرئيسية المسطّرة للشبكة القطاعية.

**٣,١,١ ـ مهامها :**

- تنظيم رصيدها الوثائقي بكيفية تسمح

باستغلاله من طرف الجميع.
- وضع برامجها وحصر حاجياتها التقنية والمهنية.
- الوفاء بواجباتها في إطار السياسة القطاعية للمعلومات.
- المشاركة في جميع التظاهرات واللقاءات التي تعقد على صعيد القطاع.
- صب المعلومات المتعلقة بأرصدتها في الذاكرة الجماعية للشبكة القطاعية بصفة منتظمة.
- تدعيم الشبكة ونشر مبدأ العمل التعاوني.
- الحرص على الاندماج التام في الوسط الذي تنتمي إليه، وضبط حاجيات المستعملين والعمل على تلبيتها بشكل أفضل.
- توجيه تقارير دورية إلى المركز المنسّق عن نشاطاتها وبالمقابل فإن هذه الوحدات تستفيد في إطار هذا التنظيم القطاعي من:
- تبادل الخبرات والاطلاع على تجارب باقي الوحدات والأجهزة التوثيقية.
- الاستفادة من التداريب المنظمة دورياً.
- التعبير عن حاجيات في إطار جماعي تعاوني (تقنياً وتنظيمياً).
- استغلال الإمكانيات المتاحة جماعياً بأقل كلفة.
- التقليص من الازدواجية.
- التقليص من تراكم الأعمال عليها.
- خدمة مستفيديها والأجهزة الإدارية التي تتبع لها بطريقة أفضل.

**٢,٣ ـ المركز القطاعي المنسّق:**

يتعلق الأمر بوحدة توثيقية ذات مستوى متطوّر. يتم اختيارها للقيام بمهام تدبير وتنسيق أعمال الشبكة القطاعية والعمل على تحقيق الأهداف المرسومة لها بتعاون مع لجنة المتابعة وباقي مكوّنات الشبكة وبتنسيق مع المركز الوطني للتوثيق.

**١,٢,٣ ـ مهامه :**

- المشاركة في وضع سياسة قطاعية للمعلومات.
- المشاركة في بلورة السياسة الوطنية للتوثيق والمعلومات.
- المساهمة في اختيار المناهج التوثيقية وبرامج العمل تمشياً مع النظام الوطني للتوثيق والمعلومات.
- احتضان وتدبير بنوك معلومات قطاعية جماعية، وتفريغها دوريا في الذاكرة الوطنية.
- ربط علاقات مع المنظمات والهيئات الوطنية والإقليمية والدولية ذات الصلة بالقطاع بتنسيق مع المركز الوطني للتوثيق .
- تنظيم الوحدات التوثيقية المنتمية إلى مؤسسة إدارية واحدة، في إطار شبكات داخلية.

■ إنجاز دراسات وبحوث قطاعية بتعاون مع جميع مكونات الشبكة.
■ تهيء التقرير السنوي القطاعي نيابة عن الشبكة القطاعية لتقديمه في إطار التنسيق الوطني.
■ نشر أدوات العمل القطاعية التي تبدو ضرورتها.
■ العمل على تنشيط التعاون والترابط بين مختلف مكوّنات الشبكة.
■ عقد أيام للتنسيق القطاعي تحضرها الوحدات التوثيقية المشاركة في الشبكة، وممثلون عن السلطات ذات الاختصاص في القطاع.
■ تنظيم تظاهرات ولقاءات وندوات علمية وتقنية لتطوير الشبكة.
■ العمل على التعريف بالشبكة وبخدماتها، باستعمال جميع الوسائل الإعلامية، والمنشورات التعريفية.
■ تأطير الوحدات التوثيقية في القطاع، وتقديم الاستشارات التقنية لها عند الحاجة.
■ دعم الإعارة المتبادلة.
■ تنظيم وتهييء النصوص التنظيمية الخاصة بالشبكة القطاعية.
■ لمركز التنسيق القطاعي، عند الضرورة، أن يختار مراكز جهوية تحظى بنفس اختصاصاته جهوياً، وتنجز أعمالها القطاعية بتنسيق مع مندوبيات وزارة التخطيط.

ونظراً لحجم وأهمية هذه المهام، ولما تتطلبه من إمكانيات فان اختيار المركز المنسّق لكل شبكة قطاعية يجب أن يرتكز على عدة شروط، أهمها:

### ٢,٢,٣ ـ شروط اختيار مركز منسّق :

■ العنصر البشري من حيث العدد والخبرة.
■ طبيعة وحجم التجهيزات التي يتوفر عليها.
■ مستوى التنظيم ودرجة الاستعمال.
■ مستوى الخدمات المتوفرة.
■ مستوى الاعتمادات ودرجة الاهتمام بقطاع التوثيق.

وفي حالة توفّر عدة وحدات توثيقية من بين مكوّنات الشبكة على هذه الشروط، فإن اختيار المركز المنسّق يوكل إلى السلطة أو السلطات القانونية الوصية على مجال أو مجالات النشاط الذي تنتمي إليه الشبكة القطاعية.

### ٣,٣ ـ لجنة المتابعة والتنسيق :

وتتكوّن من عدد من ممثلي وحدات التوثيق والمعلومات والوزارات المشاركة. على أن تكون ذات نشاط توثيقي متميّز، وأن تتوفر على الخبرة الضرورية.

ويحُدد عدد أعضاء هذه اللجنة في نسبة مائوية يتفق عليها من طرف مجموع الوحدات المشاركة. ويُشارك فيها المركز الوطني للتوثيق بممثل دائم عنه.

### ١,٣,٣ . مهامها :

- المشاركة في التخطيط للقطاع وبالخصوص في إطار التحضير للمخطّط الوطني لقطاع التوثيق والمعلومات.
- المشاركة في اللقاءات التنسيقية الوطنية.
- السير الحسن لأعمال وأنشطة الشبكة المعنية.
- تقييم منجزات الشبكة وتسهيل وتوجيه برامجها وتسهيل مأمورية المركز المنسّق في تدبير شؤون الشبكة.

تعقد هذه اللجنة اجتماعاتها، تحت إشراف المركز المنسق مرتين في السنة أو كلما دعت الضرورة لذلك.

## ٤ ـ التنسيق في إطار الشبكة الوطنية

لقد سبق أن أوضحنا أن الهدف من تنظيم شبكات قطاعية كما تفترض هذه الوثيقة هو الوصول في نهاية المطاف إلى بناء شبكة وطنية. أي أن تشكّل مجموعة الشبكات القطاعية الشبكة الوطنية للتوثيق والمعلومات التي يسهر المركز الوطني على بلورتها وتنسيق أعمالها وتطويرها وتخطيط مشاريعها بتعاون مع كل مكوّناتها.

هذه المهام الوطنية يساعد في إنجازها :

هيئة وطنية للتوثيق والمعلومات :

تتكوّن الهيئة المذكورة من مجموع المراكز المنسّقة للشبكات القطاعية، وممثلين عن كل لجنة قطاعية للمتابعة، ومندوب عن كل جهاز تبدو مشاركته ضرورية.

كما يتوفر المركز الوطني للتوثيق، في إطار المندوبيات الجهوية على مصالح للتوثيق تقوم بإنجاز نفس مهامه واختصاصاته على الصعيد الجهوي .

- التخطيط للقطاع وطنياً : تنجز هذه المهمة تحت إشراف المركز الوطني للتوثيق، في إطار تحضير مخططات التنمية الإقتصادية والإجتماعية للمملكة. وتستعين هذه الهيئة في هذه المهمة بأعمال لجان المتابعة لمختلف الشبكات.
- تنسيق القطاع وطنياً : تباشر الهيئة مهمة التنسيق تحت إشراف المركز الوطني للتوثيق، ويتوّج ذلك بلقاء سنوي أو كلما دعت الضرورة لذلك، من أجل ضبط توجّهات الشبكة الوطنية واتخاذ القرارات والتوصيات بصددها، وتقييم منجزاتها، ومناقشة مشاريعها وبرامجها.

### خاتمة :

تم تبني هذا التصوّر، في لقاء وطني للتنسيق، بتاريخ ٢٠ رجب ١٤١١ (موافق ٥ فبراير ٩١)، وصدرت توصية تدعو إلى تطبيقه، في مرحلة أولى، على بعض التخصّصات العلمية الأكثر استعداداً. ويبدو أن قطاعات الاقتصاد والفلاحة والتربية، هي أكثر المجالات تأهيلاً من حيث أوضاعها المهنية ومستواها، لتشكيل الشبكات القطاعية الفرعية الأولى، في هذا المشروع. ■